تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة الحجر وسورة النحل

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

29 ربيع الأول 1448 الموافق 11 سبتمبر 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . ..**الصفحة**

سور الحجر 4

سورة النحل..... 43

المراجع 95

سورة الحجر

تسمية السورة

(سورة الحجر) :هو الاسم الأساسي والرئيسي الذي المعتمد في المصاحف وكتب التفسير، وسميت بذلك لذكر قصة **أصحاب الحجر** في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾، ولأن اسم "الحجر" لم يُذكر في سورة أخرى غيرها.

كما قد يطلق عليها أحيانا: **(سورة رُبَمَا)** وهو اسم اجتهادي أُطلق عليها (أو عُرفت به عند بعض الكتّاب مثل كتاتيب تونس)؛ وذلك لبدء أول آية فيها بكلمة "رُبَمَا" في قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، حيث لم تقع هذه الكلمة في القرآن الكريم كله إلا في أول هذه السورة.

وهي سورة مكية بإجماع، أمّا عدد آياتها فقد ورد فيه الخلاف، فهي 99 آية في العد الكوفي، و100 آية في العد البصري والشامي، بينما هي 98 آية في العد المدني والمكي. ويعود الخلاف في الوقف والابتداء والفواصل. مثل قوله تعالى (الر) هل آية مستقلة أم تحسب مع ما بعدها آية.

سبب نزول السورة:

لم يصح في سبب نزول السورة كاملة شيء، وربما ورد في بعض آياتها كما سيتبين خلال الحديث عنها، لكنها سورة مكّيةٌ، نَزَلَت في أحْرَجِ ظُروفِ الدّعوةِ وأقساها، حيث الاستهزاءُ المُتطاولُ، والتّكذيبُ المُستحكِمُ، والحصارُ الشّديد. لذا جاءت السّورةُ كُلُّها لتُقيمَ حِصْنًا إيمانيًّا مَكينًا، وتَسْكُبَ اليقينَ في قلبِ النّبيّ ﷺ والمؤمنين، وتَصْدَعَ بانتصارِ الحقّ وثَباتِ النَّهْج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (1) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (4) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا

سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ(15) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23)وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (35)قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43)لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (44) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45)ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48)

هذه الآيات الكريماتُ في هذا الدرس هي ديباجة سورة الحجر؛ وهي سورة مكّيةٌ كما سبق، نَزَلَت في أحْرَجِ ظُروفِ الدّعوةِ وأقساها، حيث الاستهزاءُ المُتطاولُ، والتّكذيبُ المُستحكِمُ، والحصارُ الشّديد.

*﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾: افتُتحت السورة بالحروف المقطعة لقرعِ الأسماعِ والتّحدّي بإعجاز هذا القرآن المصوغ من جنسِ هذه الحروف.

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة للبعيد، إشارةٌ إلى عُلُوّ مَنْزِلةِ وَرِفْعَةِ مَقام القرآن العظيمِ، وعَرَّفَ ﴿الْكِتَابِ﴾ ليدلّ على استقراره وثبوته في اللوح المحفوظ، ونَكَّرَ ﴿قُرْآنٍ﴾ للتّعظيم والتّكثير.

عُطِفَ "قرآن" على "الكتاب"، مع أنّهما لِمُسمًّى واحد؛ للتغايرِ في الصّفات؛ فالكتابُ يُشيرُ إلى الجَمْعِ والتّدوينِ والثّبات، والقرآنُ يُشيرُ إلى التّلاوةِ والتّرديدِ والسّطوع.

ثم وصفُ القرآن بـ ﴿مُّبِينٍ﴾ وهو اسم فاعل يحمل المبالغة، فهو "بَيّنٌ" في نفسه مُعْجِز، و"مُبِينٌ" لِغيره يُظهر الحقّ من الباطل، ويستأصلُ شُبُهاتِ المشركين.

*﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بتخفيف البا، وقرأ الباقون بتشديدها.

قال البغوي – رحمه الله –: واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام، قال الضحاك: حال المعاينة، وقيل: يوم القيامة، والمشهور حين يخرج الله المؤمنين من النار.

هذا المطلع للإنذار، ولكنه مطلع ملفع بظل من التهويل والغموض يزيد جوها رهبة وتوقعاً للمصير، فالكلام خبر مستعمل في التهديد والتهويل في عدم اتباعهم دين الإسلام، والمعنى: قد يود الذين كفروا لو كانوا أسلموا، والتقليل هنا مستعمل للتهكم والتخويف، أي: احذروا ودادتكم أن تكونوا مسلمين، فلعلها تقع نادراً، كما يقول العرب في التوبيخ: لعلك ستندم على فعلك، وهم لا يشكون في تندمه [1].

الفعل المضارع ﴿يَوَدُّ﴾، لاستحضار الصورة وتجدّد تلك الودادة والتحسّر كلما رأوا مشهدًا من مشاهد عِزّ المؤمنين أو عذاب الكافرين، على القول أنّ ودادتهم تلك ستكون في الدنيا.

أمّا على القول الآخر فهو النَّدَمُ الخالِصُ الذي لا ينفعُ، يَرْتَسِمُ في وِجْدانِ الكافر حينَ تنكشفُ الحُجُب، وتغيبُ السَّكْرَة، وتتجلّى الحقيقةُ عاريةً بلا زُوُار."

---

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (630)، سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2123)، ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص187).

*﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، التفسير والسياق: أَمْرٌ للنبيّ ﷺ بالإعراض عنهم وتسليةٌ لقلبه، وبيانٌ للعلّة التي حَجَبَتْهُم عن الإيمان.

إلاّ أنّ صيغة الأمر ﴿ذَرْهُمْ﴾: تحمل تهديداً ووعيداً في قالب الإهمال، أي اتركهم في غيّهم ولا تحزن عليهم.

الترتيب التصاعدي: بدأ بالأكل ﴿يَأْكُلُوا﴾ (شهوة الحَيَوانِيّة)، ثم التمتّع ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ (استغراق الحواس)، ثم طول الأمل ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ وهو الداء العضال الذي يُخدّر الروح ويُنْسي الآخرة.

الفاء والرابط ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: جاءت الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وسوف للمُهْلَةِ التي تجعلُ العذابَ آتيًا لا محالة، أي: سوف يعلمون إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سأل القادمين من الهجرة للحبشة: أَلَا تُحدِّثونَ بأعجبِ شيءٍ رأيتُم بأرضِ الحبشَةِ؟ فقال فِتْيَةٌ منهم: يَا رسولَ اللهِ بينَا نحنُ جلُوسٌ إذْ مرَّتْ عليْنَا عجوزٌ مِنْ عجائِزِهِمْ تَحْمِلُ قُلَّةً مِنْ ماءٍ، فمَرَّتْ بِفَتًى منهُمْ فجعلَ إحدَى يدَيْهِ بينَ كتِفَيْها، ثُمَّ دفَعَها عَلَى رُكْبَتَيْها، فانكَسَرَتْ قُلَّتُها، فلَمَّا ارْتَفَعَتِ التَفَتَتْ فقالتْ: سوفَ تعلَمُ يا غُدَرُ إذا وضعَ اللهُ الكُرْسِيَّ، وجمَعَ الأوَّلينَ والآخرينَ، وتكَلَّمَتِ الأيْدِي والأرْجُلُ بما كانوا يَكْسِبونَ، أتعلَمُ أمري وأمرَكَ عندَهُ غدًا. فقال رسول اللهِ: صَدَقَتْ، كيف يُقَدِّسُ اللهُ قومًا لا يؤخَذُ لضَعِيفِهِمْ مِنْ قَوِيِّهِمْ؟ [1].

الأصل أنّ الأملُ الإيجابيُّ يدفعُ للعمل، أمّا الأملُ المذمومُ هنا فهو "طُولُ الأَمَلِ" الذي يُورِثُ القسوة، ويجعل الإنسان يظنّ أنّه مخلّد، فيُلهيه المتاعُ الزائلُ عن المصيرِ المحتوم.

1 - أخرجه ابن ماجة (4010)، وابن حبان (5058)، وأبو يعلى (2003) باختلاف يسير. وصحح الألباني إسناده.

*﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾: قَانُونٌ إلهيٌّ سُنَنِيّ في إهلاك الأمم؛ فلا يُعاجَلون بالعقوبة، وإنّا بأجَلٍ مسمّى ومقدّر في علم الله.

النفي والاستثناء ﴿وَمَا... إِلَّا﴾: أسلوب قَصْرٍ وحَصْر لإفادة أَنَّ الهلاك لا يقع عبثًا ولا مصادفة، بل بموجب كتابٍ مسطور، وفي هذا من التهديد والإبهام بالأجل، فلا تعلم القرية الظالمة متى يأتيها ما توعد.

استغراق الاستغراق بـ ﴿مِن﴾: في قوله ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ لعموم الشمول لكل القرى المكذبة عبر التاريخ.

*﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾: تأكيدٌ وتفصيلٌ لمعنى "الكتاب المعلوم" في الآية السابقة، كما أنّ تأكيد النفي بـ {مِن}: {مِنْ أُمَّةٍ} لإحاطة كافة الأمم.

إشراقة بلاغية: قال ﴿أَجَلَهَا﴾ بالتوحيد مراعاة للفظ الأمة، ثم قال ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بالجمع مراعاة لمعناها، لإفادة أن الأمة تفنى أفرادًا وجماعات عند حلول الأجل.

بيّن ابن تيمية رحمه الله أن الآيةُ تقررُ صرامةَ القوانينِ الإلهيةِ (السنن الكونية)؛ فلا الاستعجالُ المشركُ يُقدّم الأجل، ولا طُغْيانُ العاصي يُؤخّره.

*﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾: نقلٌ لشرور المشركين وقُبح مقالهم للنبي ﷺ، بهذه التهمة الجاهزة ربما أطلقت على كل أنبياء الله ورسله، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:43]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:52-53]

إشراقه بلاغية: التهكّم والسخرية: ﴿وقالوا يا أيها نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، فهم لا يقرّون بنزول الذكر (القرآن) من الله، بل قالوها على سبيل الاستهزاء: يا أيها الذي يزعم أنه يوحى إليه!، فسجل عليهم القرآن مقولتهم لتبقى شاهداة عليهم إلى يوم الدين.

التأكيد الإنكاري: أطّروا اتهامهم بـ (إِنَّكَ) و(اللام) المزحلقة في (لَمَجْنُونٌ) لتبليغ أقصى درجات الوقاحة والتأكيد في المواجهة.

تظهر هنا الحرب النفسية الشديدة التي واجهها النبي ﷺ؛ إذ يُرمى بأشرف ما أُوتِي (الذكر) لِيُتَّهَمَ بأخسّ ما يُصاب به العقل (الجنون).

*﴿لَّوْ مَا﴾ هلّا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يشهدون لك بالصدق على ما تقول، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنك نبي مرسل: استمرارٌ في التعنت والتحكّم، بطلب نزول الملائكة عيانًا ليشهدوا له.

أداة التحضيض ﴿لَّوْ مَا﴾: بمعنى (هلاَّ)، وتُستعمل للتحضيض الذي يخرج هنا مخرج التعجيز والاستكبار.

الشرط بـ {إِن}: في قوله ﴿إِن كُنتَ مَنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ للتشكيك في صدقه، ونفيه عنه بالكلية.

بيد أنّ طلبهم لم يكن طلب هداية واستبصار، بل كان طلب تعنيت وتكذيب، ولذلك جاء الردّ الإلهي الحاسم في الآية التالية.

*﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب، ولو نزلت: يعني: الملائكة لعجلوا بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، فنزول الملائكة إما بالوحي، وذلك على الأنبياء والرسل، وإما بالعذاب الاستئصالي على العتاة والمعاندين للرسل، قصر التنزيل على الحق: ﴿مَا نُنَزِّلُ... إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ يفيد القصر والحصر.

استعمال {إِذًا}: الجوابية الجزائية، أي: لو نزلنا الملائكة بناء على اقتراحهم ثم لم يؤمنوا، لَما أُنظِرُوا ولأُهْلِكُوا فورَ نزول الملائكة.

ذكر ابن عاشور –حمه الله –أنّ رحمة الله بالنبي وقومه اقتضت ألا يُجيبهم لما طلبوا؛ لأن سنة الله في المقترحين إذا لم يؤمنوا بعد رؤية آيتهم الاقتراحية هي الاستئصال العاجل.

*﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: أفقُ هذه الآية هو ذُرْوَةُ الجوابِ ورَدُّ المَهَانَةِ التي حاول المشركون إلصاقها بالنبي والذكر، وكان لا بد أن يسمعوا ما سبق من التهديد جراء استهزائهم وسخريتهم لعلهم ينتفعون بعدها بهذا الجواب الأخير.

أو هو إضراب عن المستهزئين والتفات للذين يسمعون، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:36]، أي: الذين يسمعون الكلام سماع قبول.

جاءت نون العظمة وتكررت الضمائر: {إِنَّا} + {نَحْنُ} (ضمير فصل لتأكيد الاختصاص والعماد) + {نَزَّلْنَا} + {وَإِنَّا} + {لَهُ} + {لَحَافِظُونَ} (اللام المزحلقة وشبه الجملة). خَمسُ أدوات تأكيد لتفخيم شأن الذّكر ومُنزّله.

وجاء اسم الفاعل {لَحَافِظُونَ}: الدّال على الثّبات والدوام والاستمرار عبر العصور، بخلاف الفعل الذي يفيد التجدد والحدوث.

أشار ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله إلى أنّ "الذكر" هنا يجمع القرآن والسنة المبينة له. وحفظ الله لكتابه حفظٌ للفظه من التبديل، وحفظٌ لمعانيه من أن تجتمع الأمة على الضلالة في فهمه. وهي أعظم بشارة لثبات هذا الدين مهما تكالبت عليه الأعداء.

*﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾: تسليةٌ للرسول ﷺ ببيان أن مواجهة المكذبين هي سنة قديمة في الفرق والأمم السابقة (الشيع).

إشراقة بلاغية: التأكيد بـ {اللام} و {قَدْ}: {وَلَقَدْ} لتحقيق وقوع الإرسال وتثبيت فؤاد النبي ﷺ.

مفردة {شِيَعِ}: جمع شيعة، وهي الفرق المتفرقة التي تشايعت على الباطل، وفي إيثار هذه المفردة إشارة إلى تفَرُّقِ أهواءِ أهل الباطل واختلافهم، وإن جمعهم التكذيب.

يبيّن الله لنبيه أن ما يلاقيه ليس بدعًا من المواجهة، فالطريق موحشة بسلوك الضالين، لكنها معمورة بآثار المرسلين.

*﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: بيان الطبيعة النفسية والموقفيّة للقرون الأولى تجاه أنبيائهم.

إشراقة بلاغية: الجملة الحالية ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ استغراقٌ تام؛ فما من رسولٍ يُبعث إلا وكان الاستهزاء استجابةً حتميةً من مجرمي قومه.

تقديم الجار والمجرور {بِهِ}: على الفعل "يستهزئون" للاهتمام ولإفادة أن ذوات الرسل وما جاؤوا به كان محلّ التندر والازدراء عندهم.

"إنّ الجاهليةُ هي الجاهلية، بطبيعتها الاستكبارية المريضة، تُقابل الحقّ بالهزء والسخرية حين تعجزُ عن مواجهته بالحجة والبرهان."

*﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: قال البغوي: أي كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأولين، كذلك نسلكه، أي ندخله في (قلوب المجرمين) أي مشركي مكة، وفيه رد على القدرية﴾ [1].

وقال ابن القيم: الضمير في نسلكه عائد على القرآن، فدخل في قلوب المجرمين مكذباً به كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به، لتقوم بذلك عليهم حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق، وكذبوا به، وتكذيبهم به بعد أن دخل قلوبهم أعظم كفرا من تكذيبهم به قبل أن يدخلها، وذلك مثل قوله تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

---

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (631)، والقدرية هم الذين ينكرون القدر، فيقولون: لا قدر والأمر أُنُف، ويزعمون أن كل عبد خالق لفعله، فالأمور يستأنف العلم بها، وتستأنف - بالتالي - إرادتها، وكأنهم بهذا ينفون الإرادة الأزلية والعلم الأزلي ليخرجوا فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخلاق العليم. انظر: الوصية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيقنا، ص (57) تعليق (5).

2 - عثمان الخميس فيديو على الشبكة العنكبوتية (يوتيوب).

الفعل {نَسْلُكُهُ}: السَّلْكُ هو إدخال الشيء في الشيء (كإدخال الخيط في الإبرة). ومعناه: نُدْخِلُ القرآن والذكر في قلوبهم فيمرّ بها ويمرق دون أن تستقر فيه رطوبة الإيمان، بل يدخل معروضاً عليهم مسموعاً لهم كُفْرًا واستكبارًا.

الكاف في {كَذَٰلِكُ}: للتشبيه الإيحائي؛ أي كما سلكنا التكذيب والاستهزاء في قلوب الأولين، نسلك هذا الذكر في قلوب مجرمي قريش فيردّونه.

القلب إذا جَرُمَ وقسا، صار الشفاءُ والذكرُ يدخلُ فيه ليُقيمَ عليه الحجة، لا لِيَمْتَزِجَ به امتزاجَ هداية، كالمعدة العليلة يدخلها الطعام الطيب فلا يزيدها إلا سقمًا.

وقال ابن سعدي رحمه الله: ﴿كَذَٰلِكُ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك ندخل التكذيب في قلوب المجرمين الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب وتشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية، وعدم الإيمان، ولهذا قال:

*﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله، ففيه تهديد عظيم لمكذبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أهلك الله عتاولتهم في بدر، ودفنوا في القليب، وخاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَرَكَ قَتلى بَدرٍ ثَلاثًا، ثُمَّ أتاهم فقامَ عليهم فناداهم، فقال: يا أبا جَهلِ بنَ هِشامٍ، يا أُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ، يا عُتبةَ بنَ رَبيعةَ، يا شيبةَ بنَ رَبيعةَ، أليسَ قد وجَدتُم ما وعَدَ رَبُّكُم حَقًّا؟ فإنِّي قد وجَدتُ ما وعَدَني رَبِّي حَقًّا، فسَمِعَ عُمَرُ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، كيفَ يَسمَعوا وأنَّى يُجيبوا وقد جَيَّفوا؟ قال: والذي نَفسي بيَدِه ما أنتُم بأسمَعَ لِما أقولُ منهم، ولَكِنَّهُم لا يَقدِرونَ أن يُجيبوا، ثُمَّ أمَرَ بهِم فسُحِبوا، فأُلقوا في قَليبِ بَدرٍ[1].

إشراقة بلاغية نحويه: الجملة الاستئنافية البيانية: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: تفسير لنتيجة السَّلْكِ المذكور.

واو الحال ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾: الحالية، أي والحالُ أن سنة الله في إهلاك أضرابهم وأمثالهم من المكذبين قد مضت ومَضَت آثارها، فلمَ لا يعتبرون؟

﴿سنة الأولين﴾ هي القانون الإلهي الصارم: التكذيب المستمر يعقبه المحو والإهلاك.

*﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يعرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾

تصويرٌ مذهلٌ لمبلغ عتوّهم وعنادهم النفسي، حتى لو شُوهدت معجزات خرق العادة البصرية والحسية. قال البغوي: أي فظلت الملائكة يعرجون فيها، وهم يرونها عياناً، قال: هذا قول الأكثرين.

إشراقة بلاغية: شرط الامتناع {وَلَوْ}: لبيان امتناع إيمانهم لامتناع التأثر بأعظم المعجزات.

---

1 - أخرجه مسلم (2874)، وأحمد (12471) بنحوه، والنسائي (2075)، وأبو يعلى (3326)، وابن حبان (6498) باختلاف يسير، وانظر بن سعدي: تفسير ابن سعدي (تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) (ص406).

التعبير بـ ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ استمرار الصعود والعروج في طبقات السماء ورؤية أسرار الملكوت بأعينهم.

صيغة الحصر بـ {إِنَّما}: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أي: سُدّت، ما هذا إلا غشاوة وسُكْر وسدّ لأبصارنا.

الإضراب بـ {بَلْ}: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ترقٍّ في العناد؛ فلما رأوا أن دعوى انسداد الأبصار لا تُفَسّر الشرف العظيم، ادّعوا أن العقول ذاتها قد سُحِرَت، أي: عمل فينا السحر، فسحرنا محمد.

التعبير بـ "العروج" و"تسكير الأبصار" فيه إشارة علمية وبلاغية عجيبة؛ فالصاعد في طبقات الغلاف الجوي إلى الفضاء الخارجي يخرج من منطقة تشتت الضوء إلى الظلام الدامس (حيث تسكر الأبصار وتغشى). لكن المعنى البلاغي الأعمق: المعاند لا تنفعه الدلائل ولو لامسها بيده وصعد بها للسماء!

*﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾: البروج هي النجوم الكبار، مأخوذة من الظهور، يقال. تبرجت المرأة أي ظهرت، وفي قوله: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:33] التبرج: إظهار المحاسن مأخوذ من البروج لظهورها وعلوها.

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي السماء بالشمس والقمر والنجوم والسحب وغير ذلك،
*﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: مرجوم، وقيل: ملعون.

*﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: (إلاّ) استثناء منقطع، بمعنى: لكن، والشهاب: الشعلة من النار.

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَيَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيُرْمَوْنَ بِالْكَوَاكِبِ فَلَا تُخْطِئُ أَبَدًا، فَمِنْهُمْ مَنْ تَقْتُلُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْرِقُ وَجْهَهُ أَوْ جَنْبَهُ أَوْ يَدَهُ أَوْ حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَخْبِلُهُ فَيَصِيرُ غُولًا يُضِلُّ النَّاسَ فِي الْبَوَادِي

واختلف في الشهاب، هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل. وقال الحسن وطائفة: يقتل. فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان: أحدهما – أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة. والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه إلى غيرهم من الجن، ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاسترق وانقطع الإحراق. ذكره الماوردي. قال القرطبي: والقول الأول أصح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قَضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَتِ المَلائِكةُ بأجنِحَتِها خُضعانًا لقَولِه كالسِّلسِلةِ على صَفوانٍ –قال عَليٌّ: وقال غَيرُه: صَفوانٍ يَنفُذُهم ذلك– فإذا فُزِّعَ عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال رَبُّكُم؟ قالوا للذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكَبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقو السَّمعِ –ومُستَرِقو السَّمعِ هَكَذا واحِدٌ فوقَ آخَرَ؛ ووصَفَ سُفيانُ بيَدِه، وفَرَّجَ بينَ أصابِعِ يَدِه اليُمنى، نَصَبَها بَعضَها فوقَ بَعضٍ– فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ المُستَمِعَ قَبلَ أن يَرميَ بها إلى صاحِبِه فيُحرِقَه، ورُبَّما لم يُدرِكْه حتَّى يَرميَ بها إلى الذي يَليه، إلى الذي هو أسفَلَ منه، حتَّى يُلقوها إلى الأرضِ –[وفي رواية]: حتَّى تَنتَهي إلى الأرضِ– فتُلقى على فمِ السَّاحِرِ، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذبةٍ، فيُصَدَّقُ، فيَقولونَ: ألَم يُخبِرْنا يَومَ كَذا وكَذا يَكونُ كَذا وكَذا، فوجَدناه حَقًّا؟ للكَلِمةِ التي سُمِعَت مِنَ السَّماءِ [1].

إشراقة بلاغية: ﴿بُرُوجًا﴾: الكواكب العظام أو منازل الشموس والقمر، وهي كالقلاع الحصينة لحفظ السماء.

اسم الفاعل ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾: للتنبيه على وظيفة الجمال والبهجة في الكون؛ فالكون ليس مجرد آلة تعمل، بل هو معرضُ جمالٍ أُعدَّ للناظرين والمُتفكرين.

---

1 - أخرجه البخاري (4701) من أفراد البخاري على مسلم، وانظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (632).

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّه باتَ عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ لَيلةٍ فقامَ نَبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن آخِرِ اللَّيلِ، فخَرَجَ فنَظَرَ في السَّماءِ، ثُمَّ تَلا هذه الآيةَ في آلِ عِمرانَ {إنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ} حتَّى بَلَغَ {فقِنا عَذابَ النَّارِ} [آل عمران: 190 – 191]، ثُمَّ رَجَعَ إلى البَيتِ فتَسَوَّك وتَوضَّأ، ثُمَّ قامَ فصَلَّى ثُمَّ اضطَجَعَ ثُمَّ قامَ، فخَرَجَ فنَظَرَ إلى السَّماءِ، فتَلا هذه الآيةَ، ثُمَّ رَجَعَ فتَسَوَّك فتَوضَّأ، ثُمَّ قامَ فصَلَّى[1].

*﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾: إشراقة بلاغية: التعبير بـ "استرق" بالخفاء والسِرقة، يُصوّر ذِلَّة الشيطان وحقارته في محاولته اختطاف الشرر من الملأ الأعلى.

التعبير بـ ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: شهابٌ ظاهرٌ بَيّنٌ يُبْصِرُه الناس كأنه قبسُ نارٍ يُلاحق السارق.

خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها. وفي هذا الربط بين الزينة والحفظ دلالة على أنّ هذا الجمال كالوحي الحقّ محميٌّ بالقوة والمنعة الإلهية.

*﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾

انتقالٌ لعرضٌ نعم الله المتنوعة في الأرض في جعلها مهاداً، وتثبيتها، وإنباتها، وبث الرزق فيها.

إشراقة بلاغية: الفعل {مَدَدْنَاهَا}: أي بسطناها أمام عين الناظر في كل اتجاه يلتفت إليه ليتمكن من السكنى والتقلب عليها والمشي في مناكبها.

1 - أخرجه البخاري (4701) من أفراد البخاري على مسلم، وانظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (632).

{رَوَاسِيَ}: الجبال الثوابت الشامخات شبهها بإرساء السفن، لتحفظ الأرض أن تميد وتضطرب.

وصف {مَّوْزُونٍ}: كلمة جامعة تعني المَقْدُورَ بقدرٍ معلوم، والمُقَدَّرَ بحكمة وبالمقادير الدقيقة المتناسبة مع حاجة الحياة (توازن بيئي وكيميائي دقيق).

وذكر تعليل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورة:27]، أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً.

العطف في ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾: عُطِفَ اسم الموصول على "معايش"، أي وجعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم فيها خلقًا ومخلوقات (كالدوّاب والخدم والعيال) أنتم لا ترزقونهم، بل الله هو الرزاق لهم ولكم.

وفي ذلك هدمٌ لمفهوم الملكية المطلقة والاستكبار في الأرض؛ فالإنسان لا يخلق رزقه، ولا يملك حقيقة الرزق لكفالة غيره، بل الكلُّ عالةٌ على خزائن الله.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: قاعدة كبرى وركنٌ أصل من أركان التصور الإيماني في قدرة الله والغنى المطلق والتدبير الحكيم.

إشراقة بلاغية: أسلوب نفي وقصر مركب: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا﴾: ثم ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا﴾؛ للحصر والتعميم القاطعين.

قوله ﴿خَزَائِنُهُ﴾ قال البلاغيون: استعارة وتشبيه لمقدورات الله ومواد الوجود ومنافع العباد بالخزائن المليئة التي لا تنفد، للتفهيم وتقريب العظمة، وقد قال الله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:40].

تقييد التنزيل بـ ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي بحكمة ومقدار متناسب مع المصلحة والابتلاء، لا بالجزاف.

قال ابن القيم – رحمه الله – في (الفوائد) أنّ هذه الآية قريبة من معنى قوله تعالى (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ) [النجم:42]، قال: وَتَحْت هَذَا سر عَظِيم من أسرار التَّوْحِيد وَهُوَ أَن الْقلب لَا يسْتَقرّ وَلَا يطمئن ويسكن إِلَّا بالوصول إِلَيْهِ وكل مَا سواهُ مِمَّا يحب وَيُرَاد فمراد لغيره وَلَيْسَ المُرَاد المحبوب لذاته إِلَّا وَاحِد إِلَيْهِ الْمُنْتَهى ويستحيل أَن يكون الْمُنْتَهى إِلَى اثْنَيْنِ كَمَا يَسْتَحِيل أَن يكون ابْتِدَاء الْمَخْلُوقَات من اثْنَيْنِ فَمن كَانَ انْتِهَاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إِلَى غَيره بَطل عَلَيْهِ ذَلِك وَزَالَ عَنهُ وفارقه أحْوج مَا كَانَ إِلَيْهِ وَمن كَانَ انْتِهَاء محبته ورغبته ورهبته وَطَلَبه هُوَ سُبْحَانَهُ ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أَبَد الآباد[1].

*﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: تطبيقٌ وتأكيدٌ للآية السابقة عبر نعمة المطر والرياح والماء العذب.

إشراقة بلاغية: الوصف بـ ﴿لَوَاقِحَ﴾ جمع لاقحة؛ وهي التي تُلقّح السحاب ليُمْطِر، وتُلقّح الأشجار والنبات بنقل حبوب اللقاح.

تعاقب الفاءات: {فَأَنزَلْنَا} ثم ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، لسرعة ترتب الأثر والفضل الإلهي ورحمته.

ضمير الإسقاء الكثيف: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ كلمة واحدة في رسم المصحف حوت (الفعل، والفاعل وهو الله، والمفعول الأول وهم العباد، والمفعول الثاني وهو الماء)، وهو أسلوب بياني مُعْجِز وافي الإيجاز.

الختام بـ ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: نفي القدرة البشرية على حبسه أو إنشائه أو حفظه في أرضهم وجبالهم لولا التسهيل الإلهي لحفظه في العيون والأنهار والآبار.

---

1 – انظر ابن القيم: الفوائد (ص202)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله – في أضواء البيان: قوله تعالى: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾: فيه للعلماء وجهان من التفسير كلاهما يشهد له قرآن:

الأول: أن معنى وما أنتم له بخازنين أي: ليست خزائنه عندكم، بل نحن الخازنون له، ننزله متى شئنا، وهذا الوجه تدل عليه آيات. كقوله: (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)، وقوله: (ولله خزائن السماوات والأرض) الآية، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن معنى وما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم، أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والعيون والغدران، بل نحن الحافظون له فيها، ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون). وقوله: (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين)، وقوله: (أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا). وقوله: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض). إلى غير ذلك من الآيات .اهـ. وفي تفسير أبي السعود :(ومآ أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله: (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه)، كأنه قيل نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب وإنزاله وما أنتم على ذلك بقادرين، وقيل ما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه في الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها ليجعلها سقيا لكم مع أن طبيعة الماء تقتضي الغور [1].

*﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾: بيان العظمة المطلقة في ملكية الحياة والموت والمصير النهائي للخلق.

---

1 – انظر الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥ – ١٣٩٣): أضواء البيان (ج3/ص171)، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الخامسة، ١٤٤١ هـ – ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

إشراقة بلاغية: التأكيد المغلظ: {وَإِنَّا لَنَحْنُ} ضمير العظمة المعطوف على ضمير التفخيم واللام المزحلقة؛ لقطع أي شرك في قضية الإحياء والإماتة.

الصفة القيومية {وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}: أي الباقون بعد فناء كل المخلوقات، الذين يرجع إليهم الملك كله يوم لا ملك إلا له، كما في قوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

انتقالٌ منطقي إيماني؛ فمن أنشأ الكون ورزقه بالماء والخيرات، هو وحده المحيي والمميت، والوارث الحقيقي لكل شيء بعد زوال النعم من أيدي البشر.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يَطْوِي اللهُ السَّماواتِ يومَ القيامةِ ثُمَّ يأخُذُهنَّ بيدِه اليمنى ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضينَ ثُمَّ يأخُذُهنَّ بشمالِه ثُمَّ يقولُ أنا المَلِكُ أين الجبَّارونَ أين المُتكبِّرونَ[1].

وهذا يُوافِقُ قولَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]، فالسَّمواتُ والأرضُ في يَدِ اللهِ سُبحانَه وفي قَبْضتِه، لا يَفوتُه منها شَيءٌ، ولا يَخْفى عن عِلْمِه منها شَيءٌ، ولا يَعزُبُ عن قُدرتِه منها قليلٌ ولا كثيرٌ، "ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ، أين الجبَّارونَ؟" أي: الَّذين كانوا يَتسلَّطونَ على العِبادِ، ويتجبَّرونَ عليهم في الدُّنيا ظُلمًا وعُدوانًا، "أين المُتكبِّرون؟" أي: المُتعالُون على النَّاسِ بمالِهم وجاهِهم.

*﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بِالْمُسْتَقْدِمِينَ الْأَمْوَاتَ وَبِالْمُسْتَأْخِرِينَ الْأَحْيَاءَ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمُسْتَقْدِمُونَ الْقُرُونُ الْأُولَى وَالْمُسْتَأْخِرُونَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْمُسْتَقْدِمُونَ فِي الطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ، وَالْمُسْتَأْخِرُونَ الْمُبْطِئُونَ عَنْهَا .

1 - أخرجه البخاري (7412)، ومسلم (278).

وَقِيلَ: الْمُسْتَقْدِمُونَ فِي الصُّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ وَالْمُسْتَأْخِرُونَ فِيهَا. وَذَلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يَخْرُجْنَ إِلَى صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ فَيَقِفْنَ خَلْفَ الرِّجَالِ، فَرُبَّمَا كَانَ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ فِي قَلْبِهِ رِيبَةٌ فَيَتَأَخَّرُ إِلَى آخِرِ صُفُوفِ الرِّجَالِ، وَمِنَ النِّسَاءِ مَنْ كَانَتْ فِي قَلْبِهَا رِيبَةٌ فَتَتَقَدَّمُ إِلَى أَوَّلِ صُفُوفِ النِّسَاءِ لِتَقْرَبَ مِنَ الرِّجَالِ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا"[1].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ رأى في أصحابِه تأخُّرًا، فقال: تقدَّموا فأتمُّوا بي، وليأتمَّ بكم مَن بعدَكم، ولا يزالُ قومٌ يتأخرونَ حتَّى يُؤخِّرَهم اللهُ عزَّ وجلَّ"[2].

قال شيخنا العثيمين رحمه الله: وعلى هذا فيخشى على الإنسان إذا عود نفسه التأخر في العبادة أن يبتلى بأن يؤخره الله عز وجل في جميع مواطن الخير"[3].

إشراقة بلاغية: التقابل والطباق: بين {الْمُسْتَقْدِمِينَ} (السابقين من الأمم) و{الْمُسْتَأْخِرِينَ} (الباقين أو الذين لم يُخلقوا بعد).

لا يندّ عن علم الله نفسٌ أزلًا وأبدًا، وهذا الحصر الشامل هو الركن الذي يُقام عليه العدل يوم القيامة، فلا يُنسى مقدّم، ولا يُهمَل متأخر.

*﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، {رَبَّكَ}: إضافة الربوبية للرسول ﷺ {وَإِنَّ رَبَّكَ} لإيناسه وتكريمه وتبديد وحشته من كيد الكفار.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ على ما ماتَ عليه [4].

---

1 - مسلم (440)، من أفراد مسلم على البخاري.
2 - أخرجه مسلم (438)، وأبو داود (680)، والنسائي (794، 795،) واللفظ لهم.
3 - انظر فتاوى ابن عثيمين (ج13/ص45).
4 - أخرجه مسلم (2878) بلفظه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رَجُلٌ واقِفٌ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَرَفةَ، فوقَعَ عن راحِلَتِه -قال أيُّوبُ: فوقَصَتْه، وقال عَمرٌو: فأقصَعَتْه- فماتَ، فقال: اغسِلوه بماءٍ وسِدرٍ، وكَفِّنوه في ثَوبَينِ، ولا تُحَنِّطوه، ولا تُخَمِّروا رَأسَه؛ فإنَّه يُبعَثُ يَومَ القيامةِ، قال أيُّوبُ: يُلَبِّي، وقال عَمرٌو: مُلَبِّيًا. [1].

الختام بالاسمين الحُسنيين {حَكِيمٌ عَلِيمٌ}: فالحشر يُدار بـ العلم المحيط بكل ذرة وأثر، وبـ الحكمة التي تضع الجزاء في موضعه العادل.

*﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو التراب المبتل المنتن، جل صلصالا كالفخّار.

*﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ والسموم: ريح تدخل مسام الإنسان فتقتله، ويقال: السموم بالنهار، والحرور بالليل.

بدءُ قصة الخلق الأولى (آدم وإبليس)، لبيان أصل الطين الذي استكبر عنه الشيطان، وأصل النار التي خُلِقَ منها.

إشراقة بلاغية: التفصيل الدقيق لمادة الخلق: {صَلْصَالٍ} (الطين اليابس الذي له صلصلة وصوت عند النقْر) {مِّنْ حَمَإٍ} (الطين الأسود المتغير) {مَّسْنُونٍ} (المصبوب الملسك الممتد). هذا التفصيل فيه تلميح لدناءة الأصل المادي للإنسان لولا نفخة الروح!، ولولا هداية الله لمن هداه لتوحيده وعبادته، وهو أوضح في قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ، كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:38-39].

المقابلة التكتيكية: بين أصل الإنسان (طين متكاتف متحمّل للتشكّل) وأصل الجان {نَّارِ السَّمُومِ} (النار الشديدة الحرارة التي تنفذ في المسام ولا دخان لها).

فإنّ إظهار أصل المادة الطينية فيه درسٌ في التواضع الإنساني، وفيه التعجيب من قدرة الله الذي أخرج من هذا الطين المائي الأسود عقولًا ونبواتٍ وأرواحًا زاكية!

1 - أخرجه البخاري (1268)، ومسلم (1206).

*﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

المشهد العظيم للتكريم الإلهي لآدم عليه السلام والتكليف الموجه للملائكة.

إشراقة بلاغية: إضافة الروح إلى ذاته العلية: {مِن رُّوحِي}؛ إضافة تشريف وتكريم وتعظيم لسرّ الحياة الإنسانية، فهذا الكائن ليس مجرد طين، بل طينٌ اتصل بالنفخة الإلهية، بفضله ومنه وكرمه.

الفعل الفوري {فَقَعُوا}: خرّوا فورًا، وصيغة الخرور والسقوط تعكس السرعة والامتثال المطلق لجميع الملائكة دون تردد.

"هنا تتجلى حقيقة الإنسان المزدوجة: أصلٌ أرضيٌّ طينيٌّ من حَمَأٍ مسنون، ونفخةٌ علويةٌ ساميةٌ من روح الله. فبالنفخة كَرُمَ واستحقَّ أن يُسجَدَ له بأمر الله له بذلك."

*﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ امتثالاً لأمر ربهم، قال الشيخ سلمان العودة: لعل السجود له إيذانا بتوكيلهم بخدمته وحفظه.

*﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾: امتثال الملاء الأعلى وسقوط إبليس في شباك الكبر والعصيان.

إشراقة بلاغية: التأكيد المزدوج: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾: لتأكيد أن السجود لم يتخلف عنه ملك واحد (لا مقرّب ولا خادم)، ونفي أي احتمال للتجزيء.

استثناء إبليس مع قوله {أَبَىٰ}: فيه إبرازُ حالة الإباء والتمرد النفسي والرفض الشديد من إبليس.

ينبه ابن تيمية – رحمه الله – أنّ أصل المعصية عند إبليس لم يكن نسيانًا أو شهوة، بل كان كِبْرًا واستعلاءً واعتقادًا وقياساً فاسداً؛ ولهذا كانت معصية الكبر أشدّ وأهلك.

*﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾:

الاستجواب الإلهي الشريف، والردّ الإبليسي الوقح المبني على الحسد والاستكبار والقياس الفاسد.

إشراقة بلاغية: صيغة السؤال الإلهي {مَا لَكَ﴾: سؤال تقرير وتوبيخ لإظهار شناعة الموقف.

اللام في ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ}: لام الجحود؛ وتفيد نفي الأهلية والاستحالة، أي لا ينبغي لنسبي ومقامي الرفيع أن ينحني لهذا الكائن الطيني!

التكرار المظلم: أعاد إبليس نفس العبارة ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: محاولةً منه لتحقير قدر آدم بالتركيز على أصله المادي مغفلاً أنّ الله هو الذي سواه ونفخ فيه من روحه وهو سبحانه الذي أمر بالسجود له.

وأشار ابن القيم – رحمه الله – إلى أنّ إبليس هو "أول من قاس الدين برأيه"، فنظر إلى المادة (النار والطين) وغفل عن الأمر الإلهي الشريف ﴿فقعوا له ساجدين﴾: فشَقِيَ بحسده وكبره.

*﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: صدور الحكم الإلهي بالطرود والإبعاد والأبدية في المقت.

إشراقة بلاغية: الفاء الرابطة في ﴿فَاخْرُجْ﴾: الفاء الفصيحة، أي: إذا كان هذا استكبارَك وتعنتَك فاخرج فورًا.

تعليل الطرد بـ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: اسم مفعول بمعنى مرجوم بالشُّهُب، أو مرجوم بالمقت واللعنة والمطاردة من الرحمة.

تحديد الأمد بـ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾: التوكيد بـ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾: ومغزى امتدادها ليوم الدين أنه يتلوه بعد ذلك الخلود في جهنم، فاللعنة سابقة ومستمرة.

الجزاء من جنس العمل؛ فلما أظهر العزّة الكاذبة والاستكبار، أُلبِسَ ثوب الذلّة واللعنة والرجْم للأبد، وفي هذا تعريض وتحذير من الاستكبار، ومن طاعة إبليس وحزبه.

*﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾:

طلب إبليس للنظرة والمهلة لا ليستعتب ويتوب، بل لخوض حرب الانتقام، وإجابة الله له لحكمة الابتلاء الإنساني.

إشراقة بلاغية: توسّل إبليس بربوبية الله {رَبِّ}: اعترف بالربوبية لتصلح وسيلة لطلب الحاجة، مما يدل على خُبثه وعلمه بأن الله هو المتصرف وحده.

التقييد الإلهي: طلب إبليس النظرة إلى ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (ليفرّ من الموت عند النفخة الأولى)، لكن الله لم يجبه لنفس ميقاته، بل قيده بـ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: (وهو وقت النفخة الأولى التي يموت فيها الخلق).

أشار ابن تيمية رحمه الله إلى أنه لم ينفع إبليسَ إقرارُه بربوبية الله ومناجاته بـ "ربّ"، لأن هذا التوحيد (توحيد الربوبية) لم يقترن بالانقياد والطاعة في توحيد الألوهية والانقياد للأمر.

قال في كتاب فتح المجيد: والتوحيد نوعان: توحيد في المعرفة الإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات. وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية والعبادة.

وقال: تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مثل الإقرار بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وأنه هو الرازق، المطعم، القادر، المحيي المميت، إلى غير ذلك، يعني يقرّون بقدرة الله على كل شيء لكن لا يعبدونه، أو يشركون معه غيره في العبادة، والدعاء والنذر، وغير ذلك من أنواع التأله لله،

عن أبي هريرة رضي الله عن، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا قرأ ابنُ آدمَ السَّجدةَ فسجدَ اعتزلَ الشَّيطانُ يبكي يقولُ يا ويلَه أُمرَ ابنُ آدمَ بالسُّجودِ فسجدَ فلَه الجنَّةُ وأمرتُ بالسُّجودِ فأبيتُ فليَ النَّارُ"[1].

*﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾:

إعلان إبليس لخطته الشيطانية الخبيثة في حرب البشرية قائمةً على التزيين والإغواء، مع استثنائه للمخلصين.

إشراقة بلاغية: قسم وتأكيد متواصل: {لَأُزَيِّنَنَّ} + {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ}، باللام والنون المشددة.

مأزق الشرك البصري: التزيين {فِي الْأَرْضِ} هو قلب الحقائق؛ فيرى الإنسان الباطلَ والقبيحَ شهوانيًا جميلًا.

قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وابن عامر بكسر اللام (المُخْلِصين): الذين أخلصوا دينهم ونيّاتهم لله.

وقراءة بالفتح في {الْمُخْلَصِينَ}: أي الذين أخلصهم الله واختارهم ولَطَفَ بهم. والجمع بين القراءتين يُعطي الحقيقة: من أخلص لله نيته (مُخْلِص)، أخلصه الله لربوبيته وحماه من الشيطان (مُخْلَص)، وفي ذلك قوله الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [النحل:69].

التزيين هو شبكة الشيطان؛ لا يستطيع أن يجبر أحداً على المعصية، ولكنه يُغلف المعصية بالشهوة، ويُسمّي الحرام بغير اسمه ليُغري به النفس.

---

1 - أخرجه مسلم (81) وابن ماجه (871)، وانظر عبد الرحمن بن حسن: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص11).

*﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾: التقرير الإلهي العظيم لخطّ الصراط المستقيم وتحديد حدود سلطان إبليس.

إشراقة بلاغية: قوله سبحانه: {عَلَيَّ}: أي طريق التكفل والحق والوعد الصادق الذي أوجبه الله على نفسه رحمة وعدلاً؛ أن حزبه وعباده معصومون من غلبة الشيطان.

نفي السلطان: {لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}، السلطان هو القهر والحجة؛ فالشيطان لا يملك قوة إرغام، بل الإنسان الغاوي هو من يعطيه قيادته طوعاً {إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ}.

"الشيطانُ ضعيفُ الكيد أمام العبد المعتصم بربه؛ فإنما يتسلّط الشيطانُ على من والاه واستجني بشبكته ورضيَ بغوايته، يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ"﴾.

والتوكل على الله هو صدق الاعتماد القلبي على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب، والاعتراف بأنّ الأمر كله بيد الله والثقة التامة بكفالته، ولا بدّ من كثرة دعائه واللجوء إليه سبحانة.

*﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: المصير المحتوم لإبليس وأتباعه وتفصيل الهندسة الترهيبية لجهنّم.

إشراقة بلاغية: قوله ﴿لَمَوْعِدُهُمْ}: صيغة اسم مكان/زمان يفيد الحتمية التي لا مفرّ منها.

التفصيل بـ ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: الأبواب هنا دركات وطبقات، مقسمة بحسب درجات الغواية والجرائم، نسأل الله السلامة، فكما أنّ الجنة درجات، فإن النار دركات، والعياذ بالله من النار.

شبه الجملة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: حصة محددة مقدرة بدقة لا يختلط فيها أهل باب بباب آخر.

تنوع الأبواب يُطابق تنوّع المعاصي والغوايات في الدنيا؛ فمن اتبع باب شهوة معينة استحق الباب المناظر لها في العذاب.

*﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إخواناً على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾:

المشهد المقابل المقارن (فن المقابلة والترغيب والترهيب القرآني)؛ نِعَمُ أهل الجنة ونعيمهم الروحي والمادي، وهو معاني كون القرآن مثاني.

إشراقة بلاغية: التنكير للتعظيم: ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال اللهُ تَبارَك وتَعالى: أعدَدتُ لِعِبادي الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رَأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ. قال أبو هُرَيرةَ: اقرَؤوا إن شِئتُم: {فلا تَعلَمُ نَفسٌ ما أُخفيَ لَهم مِن قُرَّةِ أعيُنٍ}]السجدة: 17 . [قال أبو مُعاويةَ، عن الأعمَشِ، عن أبي صالِحٍ: قرَأ أبو هُريرةَ: (قُرَّاتِ أعيُنٍ) "[1].

مقول القول المحذوف ﴿ادْخُلُوهَا}: تقديره "يُقال لهم ادخلوها"، وفيه تبشيرٌ وتكريم وإيناس.

التلازم بين ﴿بِسَلَامٍ﴾ و ﴿آمِنِينَ﴾: سلامٌ من كل نَقْص وآفة، وأمانٌ من كل خوف وزوال.

الفعل العجيب ﴿وَنَزَعْنَا﴾: النزع يدل على اقتلاع الشيء من جذوره؛ فالغلُّ والفساد النوايا يُقتلع تماماً من النفوس البشرية لتصفو الأخوّة.

التعبير بالهيئة ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: كمال الأنس والراحة والصفاء النفسي، حيث لا يُعطي أحدٌ ظهره للآخر، بل التقابل والودّ.

---

1 - أخرجه البخاري (4779)، ومسلم (2824).

نفي المشقة والزوال: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: (نفي أصل المشقة والتعب) و ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾: (نفي الخروج بأبلغ أدوات النفي "الباء" الزائدة للتوكيد)، ليتكامل الأمن النفسي بالخلود الأبدي.

تأمل كيف بدأ النعيم بالخارجي (جنات وعيون)، ثم انتقل للسلامة النفسية والاجتماعية (نزع الغل والسرر المتقابلة)، ثم النعيم البدني (لا يمسهم نصب)، ثم تُوّج بأشرف النعيم وهو الخلود والأمان الأبدي (وما هم منها بمخرجين). إنه الكمال المطلق الذي يُداوي كل آلام الدنيا ومتاعبها.

خاتمة المقْطَع وبلاغة السَّبْكِ الكُلِّيّ: إنّ هذا المقطع الشريف من سورة الحجر يُشكّل وحدةً سياقيةً متكاملة؛ حيث يبدأ من الإشادة بالقرآن والتنديد بعناد الكفار والرد على استهزائهم، ويُسافر بالقلب في ملكوت السماوات والأرض ورزق الله الدائم، ليصل إلى القصة المحورية: صراع آدم وإبليس وأصل الهداية والغواية، ليختم بمصير الفريقين: أبواب جهنم السبعة للغاوين، وجنات السلام والصفاء الخالد للمتقين.

*(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ(51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54)قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67)قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(70) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (76)إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (79) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا

فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

هذه الآيات المباركة في هذا الدرس من سورة الحجر ملحمةً بيانيةً ودعوية كاملة؛ إذ تنتقل بالنفس من أعماق الرحمة والترهيب، إلى قصص الأنبياء كأمثلة حية على سنتي النصر والإهلاك، لتنتهي برسائل تثبيت ورعاية للقلب المحمدي الشريف.

الإعلان الإلهي الجامع: *﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

بعد أن ذكر الله حال أهل الجنة وحال أهل النار، جاء هذا الإعلان الكلي ليرسخ قوام العبودية بين الرجاء والخوف.

﴿نَبِّئْ﴾: فعل أمر بـ "النبأ"، وهو الخبر العظيم ذو الشأن، وفيه تكليف للرسول صلى الله عليه وسلم بإبلاغ العباد.

الالتفات والضمائر: قال في الرحمة: ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بضمير المتكلم المؤكد باسمه والضمير، وفي العذاب: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ بإضافة العذاب إليه لتصوير شدته وعدله.

أضاف الرحمة لنفسه الذاتية ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ليُعلم أن الرحمة مقتضى ذاته وصفاته، بينما العذاب هو أثرٌ لفعله وحكمته وعدله بحسب أفعال العباد.

وهو الرحمن الرحيم سبحانه، ومع هذا فقد خلق مائة رحمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ للَّهِ مِئةَ رَحمةٍ أنزَلَ منها رَحمةً واحِدةً بينَ الجِنِّ والإنسِ والبَهائِمِ والهَوامِّ، فبِها يَتَعاطَفونَ، وبها يَتَراحَمونَ، وبها تَعطِفُ الوحشُ على ولَدِها، وأخَّرَ اللهُ تِسعًا وتِسعينَ رَحمةً، يَرحَمُ بها عِبادَه يَومَ القيامةِ"[1].

قصة ضيف إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُم وَجِلُونَ﴾

انتقال من القاعدة العامة (الرحمة والعذاب) إلى التطبيق العملي في التاريخ؛ فقصة إبراهيم هي تجسيدٌ للمبشرات والرحمة، وقوم لوط تجسيدٌ للعذاب الأليم.

سُمّوا "ضَيْفاً" (وهو مصدر يستوي فيه المفرد والجمع) مجاراةً لظاهر أمرهم عنده في أول الحال.

﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: الوجل هو خوف القلب وانزعاجه. عبّر إبراهيم بصيغة الجملة الاسمية دلالة على ثبات الخوف وشغله لباله لما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام.

وإنما وجل عليه السلام لما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام، إما لأن ذلك نذير حرب، أو أنه عرف أنهم ملائكة نازلون بالعذاب ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:70] "[2].

*﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾

الاستفهام في ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ ليس شكاً في قدرة الله، بل هو استغرابٌ واستبعادٌ بحسب العادة البشرية للابتهاج والتعجب، ولهذا قرنه بقوله: ﴿عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾.

---

1 - أخرجه البخاري (6469)، ومسلم (2752) وهذا لفظه.

2 - انظر الطبري: جامع البيان (ج15/ص387).

﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: اختيار وصف "عليم" هنا يناسب إبراهيم (وهو إسحاق)، بينما وصف إسماعيل في مواضع أخرى بـ "حليم"؛ لأنّ إسماعيل صبر على تنفيذ رؤيا أبيه عليهما السلام.

*﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾

التناظر النفسي: طمأنه الملائكة بـ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالوعد الصادق الثابت الذي لا خلف فيه.

*﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾: النهي للمبالغة في نفي أصل القنوط عنه، ردّ إبراهيم الأدبي: رد استئنافياً بأسلوب حصر واستفهام إنكاري: ﴿وَمَن يَقْنَطُ... إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ لينفي عن نفسه القنوط مطلقاً، مبيناً أن استغرابه كان تعجباً من قدرة الله لا يئساً من رحمته. قال البغوي – رحمه الله– والقنوط من رحمة الله كبيرة، كالأمن من مكره"[1].

الانتقال إلى قصة لوط وقومه: *﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾

دقة اللفظ (الخطب): "الخطب" هو الأمر العظيم الجلل. شعر إبراهيم بحسه النبوي أن الملائكة لم تنزل فقط للبشارة، بل لأمر أكبر.

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا﴾: استخدام الفعل ﴿قَدَّرْنَا﴾ يدل على حكم العدل الإلهي المحتوم. والـ ﴿الْغَابِرِينَ﴾ هم الباقون في العذاب والتدمير.

---

1 - انظر تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص638).

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُو: انتقل السياق البليغ مباشرة إلى بيت لوط عليه السلام.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: نَكِرَهم لوطٌ لجمال صورهم وغربتهم عن البلدة، وداخله الخوف على ضيفه من سفاهة قومه.

*﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، ﴿بَلْ جِئْنَاكَ...﴾: "بل" للإضراب الإبطالي لخوفه؛ أي لا تخف منا، بل جئناك بالعذاب الذي كان قومك يشكون فيه (يمترون) ويكذبونك به.

التأكيد الثلاثي: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ لتثبيت قلبه وتحويل خوفه إلى طمأنينة.

*﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾

أوامر النجاة المشدّدة: *﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾: أي في جزء من مظلمة الليل لسِتْر الخروج.

*﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾: ليكون خلفهم فيسوقهم ويحميهم ولا يتخلف منهم أحد (رعاية القائد لرعيته).

*﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: نهي عن التلفت الحسي والنفسي، قطعاً لصلتهم بالمكان والمجرمين.

وفي موضع آخر أخبره أنّ امرأته سوف تهلك: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود:81].

*﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: توجيه مباشر نحو الهدف دون تردد، ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾: "الدابر" هو آخر القوم؛ والمعنى استئصالهم بالكامل حتى لا يبقى منهم أثر مع حلول الصباح.

مشاهد الهجوم وتفاصيل المأساة: *﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾

صور القرآن الفضيحة الشنيعة؛ القوم يهرعون يستبشرون بالشر والمأساة الأخلاقية، بينما النبي الكريم يناشدهم في شرفه ومروءته: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ .. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾.

*﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾، الوقاحة والعمى: ردهم ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ينبئ عن طغيانهم وفرضهم الحجر على لوط أن يستضيف أحداً.

*﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾: عرض عليهم الزواج الشرعي بفتيات القوم (إذ النبي ألمّةُ القوم وبناتهم بناته مجازاً) طهراً لهم، واستنقاذ لشرفه وضيوفه.

*﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، التفاتة إلهية وتكريم محمدي فريد: أقسم الله سبحانه وتعالى بحياة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وهي الآية الوحيدة في القرآن التي أقسم الله فيها بحياة مخلوق).

وهي كلمة تستعملها العرب للتوكيد: عن عروة بن الزبير: عَن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت له وهو يَسألُها عن قَولِ اللهِ تَعالى: {حتَّى إذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} قال: قُلتُ: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائِشةُ: كُذِّبوا، قُلتُ: فقدِ استَيقَنوا أنَّ قَومَهم كَذَّبوهم فما هو بالظَّنِّ؟ قالت: أجَل لَعَمري لَقدِ استَيقَنوا بذلك فقُلتُ لَها: وظَنُّوا أنَّهم قد كُذِبوا، قالت: معاذَ اللهِ! لَم تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذلك برَبِّها، قُلتُ: فما هذه الآيةُ؟ قالت: هُم أتباعُ الرُّسُلِ الذينَ آمَنوا برَبِّهم، وصَدَّقوهم فطالَ عليهمُ البَلاءُ، واستَأخَرَ عنهمُ النَّصرُ حتَّى إذا استَيأسَ الرُّسُلُ مِمَّن كَذَّبَهم مِن قَومِهم، وظَنَّتِ الرُّسُلُ أنَّ أتباعَهم قد كَذَّبوهم، جاءَهم نَصرُ اللهِ عِندَ ذلك"[1].

وقالت العرب:

لعمرك ما الأيام إلا معارةٌ .. فما اسطعت من معروفها فتزودِ

وقالت:

لعمرك ما الرزية هدم دار . . ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية موت شهم . . . يموت بموته خلق كثير

إشراقة بلاغية: التشخيص لشهوتهم بأنها "سكرة" تُغشي العقل، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ العمه هو العمي النفسي والتخبط الذي يمنع الاستبصار.

*﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

سرعة العقاب وتنوعه: الزمان: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي وقت شروق الشمس، وهو وقت الدعة والغفلة.

---

1 - أخرجه البخاري (4695)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (3090)، والحاكم في ((المستدرك على الصحيحين)) (3370)، باختلاف يسير، وابن أبي حاتم في ((التفسير لابن ابي حاتم)) (12063)، بنحوه..

العقاب المركب: صيحة مدمرة، ثم قلبٌ للمدينة ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، ثم رجمٌ بالحجارة من سجيل، جزاء وفاقاً لانتكاس فطرتهم الشنيعة.

التعقيب والعبرة التاريخية: *﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

إشراقة بلاغية: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: المتفرسين الناظرين بعين الفطرة والاعتبار الذين يقرؤون السنن في آثار الهالكين (من الوسم وهو العلامة).

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: ديارهم وطريقهم بين قريش والشام طريق مطروق بين واضح لم ينقطع، تشهد آثارهم على الخراب ليكون ذكراً وموعظة.

أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر: *﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

أصحاب الأيكة (قوم شعيب): كان جرمهم الظلم والفساد والتطفيف في التجارة، ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي بصلة وطريق واصل واضح مريب يمر عليه الناس.

*﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

أصحاب الحجر (ثمود – قوم صالح)، المفارقة البلاغية النفسية: كانوا ينحتون البيوت الصخرية في الجبال لطلب ﴿آمِنِينَ﴾ والأمان الحسي.

لكن الأمَان الجسدي والصخري لا يحمي من القدر الإلهي؛ فأتتهم ﴿الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ولم تغنِ عنهم حصونهم وصخورهم ومكاسبهم شيئاً.

عن عبد الله بن عمر رضي عنهما: مَرَرنا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الحِجرِ، فقال لَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تَدخُلوا مَساكِنَ الذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم، إلَّا أن تَكونوا باكينَ؛ حَذَرًا أن يُصيبَكُم مِثلُ ما أصابَهُم، ثُمَّ زَجَرَ فأسرَعَ حتَّى خَلَّفَها"[1]..

النواميس الكونية والتسلية المحمدية: *﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ربط السنن بالخلق: لم يُخلق الكون عبثاً، بل هو قائم على "الحق"؛ ومن الحق مجازاة المحسن وإهلاك الظالم لذا قال:

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ يعني: القيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ للجزاء، ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم، واعف عنهم عفواً عفوا حسناً.

وكان من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ولأمته ما جاء في حديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اعْفُ عمَّنْ ظَلَمَكَ، وصِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأحسنْ إلى مَنْ أساءَ إليكَ، وقُلْ الحقَّ ولَوْ على نفسِكَ"[2].

والصفح الجميل: هو الذي لا عتب فيه ولا إيذاء ولا حقد، بل تجاوزٌ مع قوة، ترفعاً عن جهل المشركين.

*﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ بخلقه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وَبَعْضُ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ قَوْلَهُ {هُوَ الْخَلَّاقُ} إشَارَةً إلَى أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ فَلَا يَنْبَغِي التَّشْدِيدُ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ بَلْ يَصْفَحُ عَنْهُمْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ لِأَجْلِ الْقَدَرِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ عَاقَبَ الْمُخَالِفِينَ لَهُ وَلِرُسُلِهِ. وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَأَمَرَ بِمُعَاقَبَتِهِمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ مِنْ الْعَذَابِ مَا يُنَافِي قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُعَطِّلِينَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ. وَقَوْلُهُ {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} تَعَلَّقَ بِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ {وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ

1 - أخرجه البخاري (3380، 3381)، ومسلم (2980) وهذا لفظه..

2 - أخرجه ابن الأعرابي في ((معجمه)) (1507) باختلاف يسير، وابن النجار كما في ((كشف الخفاء)) للعجلوني (32/2) واللفظ له، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (67) صحيح لغيره.

الْجَمِيلَ} فَإِنَّ لَهُمْ مَوْعِدًا يُجْزَوْنَ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} {إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ} {فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ} {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} وَقَوْلُهُ: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} وَقَوْلُهُ {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وَلَمْ يَعْذُرْ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ بِالْقَدَرِ وَلَوْ عَذَرَ بِهِ لَكَانَ أَنْبِيَاؤُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِذَلِكَ وَآدَمُ إنَّمَا حَجَّ مُوسَى لِأَنَّهُ لَامَهُ عَلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي أَصَابَتْ الذُّرِّيَّةَ فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا أَخَرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ وَمَا أَصَابَ الْعَبْدُ مِنْ الْمَصَائِبِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُسَلِّمَ فِيهَا لِلَّهِ وَيَعْلَمَ أَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ»"[1].

*﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

1 - انظر ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (ج17/ ص96):

عن أبي سعيد بن المعلى الأنصاري رضي الله عنه قال: كُنتُ أُصَلِّي فدَعاني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلَم أُجِبْه، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي كُنتُ أُصَلِّي، قال: ألَم يَقُلِ اللهُ: {استَجيبوا للَّهِ ولِلرَّسولِ إذا دَعاكُم}؟ ثُمَّ قال: ألا أُعَلِّمُك أعظَمَ سورةٍ في القُرآنِ قَبلَ أن تَخرُجَ مِنَ المَسجِدِ؟ فأخَذَ بيَدي، فلَمَّا أرَدنا أن نَخرُجَ قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّك قُلتَ: لَأُعَلِّمَنَّك أعظَمَ سورةٍ مِنَ القُرآنِ، قال: الحَمدُ للَّهِ رَبِّ العالَمينَ، هي السَّبعُ المَثاني، والقُرآنُ العَظيمُ الذي أوتيتُه»"[1]..

وعن واثلة بن الأسقع الليثي أبو فسيلة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أُعطِيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطِيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطِيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»"[2].

قال البغوي رحمه الله: وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الفاتحة لم سميت مثاني، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحُسْنُ وَقَتَادَةُ لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِي الصَّلَاةِ فَتُقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا مَقْسُومَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ نِصْفَيْنِ نِصْفُهَا ثَنَاءٌ وَنِصْفُهَا دُعَاءٌ.

1 - أخرجه أحمد (16982)، والطبراني (76/22) (187)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (2415) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده في بداية السول (59).

2 - أخرجه البخاري (5006) من أفراد البخاري على مسلم/

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إن الله تعالى يقولُ: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفينِ، نصفُها لي ونصفُها لعبدي ولعبدي ما سألَ، فإذا قالَ: {الحمدُ للهِ ربِّ العالمين} قالَ اللهُ: حمِدني عبدي، وإذا قالَ: {الرَّحمنِ الرَّحيمِ } قالَ اللهُ : أثنى عليَّ عبدي، وإذا قالَ: { مالكِ يومِ الدينِ} قال اللهُ عز وجل: مجّدني عبدي، وفي روايةٍ فوَّضَ إليَّ عبدي، وإذا قالَ: {إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ} قال: فهذه الآيةُ بيني وبين عبدي نصفينِ ولعبدي ما سألَ ، فإذا قالَ: {اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالينَ} قال: فهؤلاءِ لعبدي ولعبدي ما سألَ"[1].

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: سُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ مَرَّةً بِمَكَّةَ وَمَرَّةً بِالْمَدِينَةِ كُلَّ مَرَّةٍ مَعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَثْنَاهَا وَادَّخَرَهَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَمَا أَعْطَاهَا غَيْرَهُمْ.

وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ الْبَلْخِيُّ: سُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّهَا تُثْنِي أَهْلَ الشَّرِّ عَنِ الْفِسْقِ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ ثَنَيْتُ عَنَانِيَ. وَقِيلَ: لِأَنَّ أَوَّلَهَا ثَنَاءٌ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ السَّبْعُ الطِّوَالُ مَثَانِيَ لِأَنَّ الْفَرَائِضَ وَالْحُدُودَ وَالْأَمْثَالَ والخير والشر والعبر والخبر ثُنِّيَتْ فِيهَا. وَقَالَ طَاوُسٌ: الْقُرْآنُ كُلُّهُ مَثَانِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ [الزُّمَرِ: 23] . وَسُمِّيَ الْقُرْآنُ مَثَانِيَ لِأَنَّ الْأَنْبَاءَ وَالْقَصَصَ ثُنِّيَتْ فِيهِ"[2].

المقابلة والموازنة: المنحة العظمى: ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ (سورة الفاتحة وقيل السور الطوال) والقرآن.

---

1 - أخرجه البخاري (5006) من أفراد البخاري على مسلم

2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص641).

التوجيه: من ملك القرآن والسبع المثاني فقد حاز الغنى المطلق؛ فلا ينبغي له أن يمد عينيه رغبةً أو إعجاباً بما لدى الكفار من متاع زائل: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وفي تعبير مد العين مبالغة في تمني ما عندهم.

عن أبي هيرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: انظروا إلى من هو أسفلَ منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقَكم، فإنه أجدَرُ أن لا تزدَروا نعمةَ اللهِ عليكم"[1].

قال البغوي رحمه الله: رُوِيَ أَنَّ سُفْيَانَ بْنَ عيينة تَأَوَّلَ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لم يتغن بالقرآن "[2]. أي: من لَمْ يَسْتَغْنِ بِالْقُرْآنِ. فَتَأَوَّلَ [6] هَذِهِ الْآيَةَ"[3].

تلطيف النبي صلى الله عليه وسلم وربطه برعيته: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: لا تبتئس لعدم إيمانهم.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية بديعة تُشبه النبي بالطائر الذي يخفض جناحه لحماية فراخه، توخياً للرحمة، والتواضع، والرعاية الكاملة لأتباعه.

مواجهة الاستهزاء وخاتمة السورة: *﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

التحذير والوعيد: ﴿عِضِينَ﴾: أي أجزاء وأعضاء متفرقة؛ آمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو قسموا أقوالهم فيه (شعر، سحر، كهانة).

---

1 - أخرجه مسلم (2963)، والترمذي (2513)، وابن ماجه (4142)، وأحمد (7442)، واللفظ لهم.

2 - أخرجه أبو داود (1469) واللفظ له، وابن حبان في صحيحه (120) وابن ماجه (1337) في أثناء حديث، وأحمد(1476) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعاً.

3 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص642).

القسم الإلهي المفزع: *﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ قسم بذات الرب المضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، تأكيداً على الحساب الدقيق والمساءلة الجامعة.

*﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

لما نزلت سورة المدثر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس خفية، وكان من أسلم من الناس إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشِّعاب، يستخفي بصلاته من المشركين، فلحقهم المشركون يستهزئون بهم، ويعيبون صلاتهم، فحدث شجار بينهم وبين سعد بن أبي وقاص، أدمى فيه سعد رجلاً من المشركين. وبعد تلك الحادثة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه دار الأرقم عند الصفا، فكانوا يقيمون الصلاة بها، واستمروا كذلك ثلاث سنين، أو تزيد، روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) [الحجر:94] فخرج هو وأصحابه، وكان ذلك في السنة الرابعة، أو الخامسة من البعثة، وبنزول هذه الآية ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الاختفاء بدار الأرقم، وأعلن بالدعوة للإسلام جهراً "[1].

الانفجار الدعوي الصريح: *﴿فَاصْدَعْ﴾: أصل الصدع شق الزجاجة أو الشيء الصلب بحيث لا يمكن لأمته؛ والمراد: اجهر بالحق جهاراً يكسر باطلهم كسرًا لا جبر له، وبث الدعوة بقوة دون خوف.

الكفاية الإلهية: *﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾؛ صيغة توكيد ونصرة تمسح الألم عن قلب الرسول وتضمن له قمع المستهزئين وصيانة دعوته.

1 - انظر إسلام ويب: في ظلال آية (فاصدع بما تؤمر) (22491)

*﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: حتى يأتيك الموت الموقن، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:31].

هذا هو الدواء النفسي والعلاج الرباني: ففي الآية تعريف وتسلية إلهية بالضيق الصدري الذي يعتري النبي جراء الاستهزاء والافتراء: *﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ...﴾.

ثم كانت الوصفة والبلسم الشافي: *﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: بالتنزيه والثناء؛ فإن ذكر الله يفرغ الصدر من هموم الخلق ويمحوها.

*﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾: بالصلاة؛ فالقرب في السجود أمان النفس وراحة القلب.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾: بالاستمرار والمواظبة على العبادة حتى الموت (اليقين هنا هو الموت وما بعده بإجماع المفسرين).

هكذا تنتهي السورة العظيمة ببراعة ختام متناسقة مع مطلعها؛ تبدأ بتبليغ الرحمة والعذاب والتخويف بالساعات والسُنن، وتنتهي بربط قلب الداعية والمؤمن بالمحكم الأكبر: التسبيح، السجود، والعبادة الدائمة حتى اللقاء الإلهي، ليبقى القرآن دائماً سكن النفس ومدد الطريق.

*

سورة النحل

تسمية السورة

(سورة النحل): هو الاسم التوقيفي والثابت في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وسُميت بذلك لذكر آية النحل فيها دون غيرها من السور.

كما يطلق عليه كذلك سورة النعم، وهو اسم اجتهادي أطلقه عليها بعض السلف والمفسرين، لكثرة ما ورد فيها من تعديد نعم الله سبحانه وتعالى على عباده.

وقد يطلق عليها البعض سورة النعيم، وسورة الآلاء ولكن هنا ينبغي أن نميز بينها وبين سورة الرحمن التي تكرر فيها كثيرا قوله تعالى (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ).

وهي سورة مكية، نزلت بمكة جميعها أو معظمها، فقد يخالف البعض في الآيات الثلاث الأخيرة منها على أنها نزلت بالمدينة.

وعدد آياتها 128 باتفاق مدارس العد (المدني والكوفي والبصري والشامي).

سبب النزول

نقل الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر): (قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء، قالوا: ما نرى شيئاً، فأنزل الله تعالى: (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون)، فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئا مما تخوفنا به، فأنزل الله تعالى: (أتى أمر الله) فوثب النبي - صلى الله عليه وسلم - ورفع الناس رءوسهم، فنزل) : فلا تستعجلوه (فاطمأنوا، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "بعثت أنا والساعة كهاتين"، وأشار بأصبعه - " إن كادت لتسبقني. "

قال الواحدي: وقال آخرون: الأمر هاهنا العذاب بالسيف، وهذا جواب للنضر بن الحارث حين قال:(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) يستعجل العذاب، فأنزل الله تعالى هذه الآية [1].

عن قتادة: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ) قال: ذُكِر لنا أنها نزلت في عمار بن ياسر، أخذه بنو المغيرة فغطوه في بئر ميمون وقالوا: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك وقلبه كاره، فأنزل لله تعالى ذكره (إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا): أي من أتى الكفر على اختيار واستحباب، (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ). وفي رواية: قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمار: إن عادوا فعد [2].

---

[1] - انظر الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨ هـ): أسباب النزول (ص278)، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

[2] - انظر الطبري: جامع البيان (ج17/ص304).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(14) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(29))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس الأول هي افتتاحية وديباجة سورة النحل (سورة النعم)، وهي مكيّة المقطع، تُعالج قضايا العقيدة الكبرى: التوحيد، والوحي، والبعث، والجزاء، وتدحض الشرك بأسلوب بياني بليغ يربط بين آلاء الله المشهودة في الآفاق وفي أنفس العباد، وبين استحقاقه جلّ وعلا للعبادة وحده.

*﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، إشراقة بلاغية: تعبير عن المستقبل المحقق بصيغة الماضي ﴿أَتَىٰ﴾ (ماضٍ لتحقق الوقوع)، وهو ما يُسمّى في علم المعاني بالتعبير عن المستقبل المتيقن بالماضي إشعاراً بقربه وحتميته.

عن سهل بن سعد الساعدي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بعِثتُ أنا والسَّاعةُ كَهذه مِن هذه، أو: كَهاتَينِ، وقَرَنَ بينَ السَّبَّابةِ والوُسطى[1]..
ورواية البغوي – رحمه الله -: لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: بعِثتُ أنا والسَّاعةُ كهاتين، وأشار بأصبعيه، وإن كادت لتسبقني[2]..

والمعنى: أننا لو قدَّرنا عمُر الزمن بالأصبع الوسطى فإن ما بقي منه عند مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم يكون بمقدار ما تزيد الوسطى عن السبابة

وفي الحَديثِ: أنَّ مِن أَشْرَاطِ السَّاعةِ وعَلاماتِها السَّابقةِ المتقدِّمةِ: بَعْثَةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ بَعْثَتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكَونَه خَاتَمَ النَّبيِّين وأنه ليس هناك نبي آخر بعد النبي صلى الله عليه وسلم دَليلٌ على قُربِ السَّاعةِ.

وفيه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاتَمُ الأنبياءِ، وأمَّتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاتِمةُ الأُمَمِ، وعليها تقومُ السَّاعةُ.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِى أَجَلِ مَنْ خَلاَ مِنَ الأُمَمِ مَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ) وفي لفظ (إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ)[3].

يُراد بـ ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ القيامة أو العذاب الذي وُعد به المشركون في الدنيا من يوم بدر، وانتهاء دولتهم وصولتهم وغير ذلك. ولمّا كان استعجالهم استهزاءً وسخرية، جاء النهي ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ فالنهي متفرع عن تحقق إتيانه.

ختم الآية بالتنزيه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ لقطع أي توهم بنقص قدرته أو تأخر وعده، وتبرئة لعرش ألوهيته عن الشركاء.

*﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾

---

[1] - أخرجه البخاري (5301)، ومسلم (2950)، وأحمد (22796)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (6/ 175) (5912)، والحميدي (954) جميعا باختلاف يسير..
[2] - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (643).
[3] - أخرجه البخاري (3459و 557).

هنا ما يسميه البلاغيون استعارة، حيث استعار القرآن لفظ ﴿بِالرُّوحِ﴾ للوحي، لأن الوحي تُحيى به القلوب والأرواح كما تحيى الأبدان بالأرواح.

وفي قوله تعالى: ﴿تنزل الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فيها﴾ [القدر:4]، من باب عطف الخاص على العام، فالروح هنا – هو جبريل عليه السلام على قول جمهور المفسرين – داخل في عموم الملائكة، غير أن تخصيصه بالذكر بعدهم تشريفٌ لمقامه، وإشارة إلى عظم الحدث الذي يحضر له سيد ملائكة الوحي نفسه، كل عام، في هذه الليلة العظيمة، كما حضر أول مرة، حين نزول القرآن في هذه الليلة. فكأن نزولَه في كل عام تجديدٌ لذكرى تلك اللحظة الأولى التي لامس فيها الوحي قلب النبي ﷺ. فلعله سمي بالروح لأنه ينزل بالوحي الذي هو الروح الذي يحيي القلوب.

لمّا ذكر الله إتيان أمره (القضاء والقدر)، أردفه بإنزال الوحي الذي هو أصل التكليف؛ فالأول أمر كوني، والثاني أمر شرعي.

الغاية الإيمانية: اختصار الرسالات السماوية في قضية التوحيد والتقوى: ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمُعاذِ بنِ جَبَلٍ حينَ بَعَثَه إلى اليَمَنِ: إنَّكَ سَتَأتي قَومًا أهلَ كِتابٍ، فإذا جِئتَهم فادعُهم إلى أن يَشهَدوا أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، فإن هُم أطاعوا لكَ بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللهَ قد فرَضَ عليهم خَمسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيلةٍ، فإن هُم أطاعوا لكَ بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللهَ قد فرَضَ عليهم صَدَقةً تُؤخَذُ مِن أغنيائِهم فتُرَدُّ على فُقَرائِهم، فإن هُم أطاعوا لكَ بذلك، فإيَّاكَ وكَرائِمَ أموالِهم، واتَّقِ دَعوةَ المَظلومِ؛ فإنَّه ليس بينَه وبينَ اللهِ حِجابٌ[1].

وفي لفظ ذكره ابن تيمية رحمه الله: إنَّك تأتي قومًا أهلَ كتابٍ فليكن أوَّلُ ما تدعوهم إليه شهادةَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فأعلِمْهم أنَّ اللهَ افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في اليومِ واللَّيلةِ، فإنْ هم أطاعوا لك فأعلِمْهُم أنَّ اللهَ افترضَ عليهِم صدقةً تُؤخذُ من أغنيائهم فترَدُّ في فقرائِهم[2].

من فقه الحديث: أنّه ينبغي بل يجب على الدَّاعيةِ إلى اللهِ تعالَى مُراعاةُ الأولويَّاتِ، والتَّدرُّجُ في دَعوتِه؛ حتَّى يَصِلَ بمَن يَدْعوهم إلى الالْتزامِ التَّامِّ بأوامِرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا ما قام به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وربَّى عليه أصحابَه.

---

1 - أخرجه البخاري (1496) واللفظ له، ومسلم(19) .

2 - انظر جامع الرسائل لابن تيمية (ج1/ص15)، قال في الدرر السنية: صحيح.

*﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: الباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾ للملابسة؛ أي خلقهما ملابساً للحق والغايات الحكيمة، لا عبثاً ولا باطلاً.

الربط بين عظائم الخلق (السموات والأرض) ونفي الشرك تعريضٌ بعقول المشركين الذين يعبدون حجارة لا تخلق ولا ترزق.

*﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، الطباق والمفارقة البيانية: مفارقة عجيبة بين بداية الخلق الحقيرة ﴿نُّطْفَةٍ﴾ (ماء مهين) وبين المآل ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (مبالغ في الخصومة والجدال بالباطل).

الفاء العاطفة: ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة؛ يُخلق من نطفة ضعيفة، ثم يتجاوز السياق مراحل عمر الإنسان جميعها، فإذا به يتطاول فور اكتماله ليخاصم خالقه! (كما أشار ابن القيم في إيضاح كفران الإنسان لنعمة أصله).

*﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، تقديم ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ بالمفعولية للتوكيد والاهتمام بعظيم النعمة التي من أجلها خلقت.

ترتيب المنافع: بدأ بـ ﴿دِفْءٌ﴾ (الملابس والأغطية من أصوافها وأوبارها) لأن وقاية الجسد مقدّمة، ثم عَمّم بـ ﴿وَمَنَافِعُ﴾ (الركوب، اللبن، الحمل)، ثم خَصّ القوت ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. فيه تركيز على المنافع التي قد لا يتأملها الإنسان، فكذرها قبل المنافع الواضحة.

*﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، وهذه منفعة معنوية، يوضح سيد قطب ومحمد قطب – رحمهما الله - أنّ القرآن لا يقف عند حد الحاجة المادية (الدفء والأكل)، بل يرتقي للجمال والنفسي؛ متعة النظر إلى الأنعام راجعة بالعشي ﴿تُرِيحُونَ﴾ ومُنطلقة بالغداة ﴿تَسْرَحُونَ﴾.

تقديم الإراحة: قدّم الإراحة لأن الشبع والامتلاء بالخير يظهر على الأنعام عند عودتها مساءً، فيكون منظرها أبهى وأسرّ لقلب صاحبها.

*﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذه أخّرها لأنّ حمل الأثقال لا يكون في جميع الأنعام، بل الأبل، وليأتي بعدها ما يحمل الناس والأثقال من غير الأنعام.

﴿بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ قراءة الجمهور بكسر الشين تعني بالمشقة الشديدة، والجهد العظيم، والعناء الذي يبلغ بالنفس جهدها حتى يكاد يقصمها أو ينقص من قوتها .

أما (بَشَقّ الأنفس) بفتح الشين - وهي قراءة أبو جعفر-: تعني النصف، وهنا تداخل لساني معجز: يرى المفسرون أن الشِّق بالكسر يحمل معنى النصف أيضاً؛ أي: "لم تكونوا بالغيه إلاّ بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها من شدة التعب". فاللفظة لسانياً تجمع بين جهد البدن وانشطار الطاقة.

ويشير ابن عاشور - رحمه الله - إلى لطيفة أسلوبية: حيث أفاد ظاهر اللفظة أنهم كانوا يبلغونه بدون الرواحل بمشقة، وليس هذا مقصوداً... بل المراد: لم تكونوا بالغيه لولا الإبل... فحُذف لقرينة السياق. ويرى أن هذا الإيجاز بالحذف مع اختيار اللفظ الشديد (شق) يجسد بعد المسافة مع وعورة الطريق في مخيلة السامع قبل أن يسلكه [1].

أمّا سيد قطب رحمه الله فيفيض بظلاله التصويرية الحية: "إنها رحلة طويلة واهنة، تكاد تنشق فيها النفوس جهداً وكداً.. والقرآن يرسم هذا المشهد بكلمات تقطر تعباً: ﴿بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾، لكي يلمس قلوب العباد بيد اللطف الإلهي في ختام الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فبين مشقة المشهد وعذوبة الختام يتجلى جمال الأسلوب.

كما يتناول محمد قطب - رحمه الله - اللفظة من زاوية "التربية بالقرآن"، مبيناً أن التعبير يربط المشاعر الإنسانية بالواقع الفطري، فالإنسان ضعيف بطبعه، وتذكيره بـ "شق نفسه" يكسر كبرياءه البشري ليعترف بفقره التام إلى ربه.

كما يلاحظ ما يطلق عليه البلاغيون استعارة مكنية: حيث صوّر "المشقة" بشيء مادي يشقّ النفس، أو صوّر "النفس" بذات مادية تُقطع إلى نصفين من فرط الإعياء.

وفي ذلك كناية بليغة عن صفة وهي "بلوغ الغاية القصوى من الجهد البشري".

وفيها تشخيص حركي: حيث لم يقرن المشقة بالجسد (بشق الأبدان) بل قرنها بالنفس (بشق الأنفس)؛ لأن النفس هي مركز الإحساس والالم؛ فإذا انشقت النفس وجهدت أنهك الجسد.

وهذا التداعي يشبه ما عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه النعمان بن بشير رضي الله عنه: "مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهِم، وتعاطُفِهِمْ. مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى"[2].

*﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، التنويع والتدرج: بعد الأنعام ذات المنافع التغذوية والجمالية، انتقل للركوب والزينة.

قال البغوي – رحمه الله -: وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ حَرَّمَ لُحُومَ الْخَيْلِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَتَلَّا هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ: هَذِهِ لِلرُّكُوبِ [وَإِلَيْهِ ذَهَبَ] الْحَكَمُ، وَمَالِكٌ، وَأَبُو حَنِيفَةَ.

---

[1] - انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص257).
[2] - أخرجه البخاري (6011) ومسلم (2568) واللفظ له.

وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى إِبَاحَةِ لُحُومِ الْخَيْلِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَشُرَيْحٍ، وَعَطَاءٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ.

وَمَنْ أَبَاحَهَا قَالَ: لَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ بَيَانَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ تَعْرِيفُ اللَّهِ عِبَادَهُ نِعَمَهُ وَتَنْبِيهُهُمْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَاحْتَجُّوا بِمَا:

ثم روى بسنده إلى جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ وَرَخَّصَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ" [1].

رُوِيَ عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، قال البغوي: وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ [2].

الإعجاز والتوسع المستقبل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قيل: يعني: ما أعده الله في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به إذن ولا خطر على قلب بشر، وهي جملة استئنافية مفتوحة الاستغراق؛ تشمل كل ما يستحدثه الله من وسائل نقل ومراكب عبر العصور (السيارات، الطائرات، القطارات)، مما يبرز إعجاز القرآن وصلاحه لكل زمان.

*﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، هنا ما يسميه البلاغيون: مجاز والتفات بياني، حيث الانتقال من معالم الطريق المادي (الدواب والسُّبل) إلى الطريق المعنوي الأخروي.

﴿وعلى الله قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ القصد: الطريق المستقيم الموصل إلى الله؛ وعلى الله بيان طريق الهدى من الضلال، قوله ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ﴾ أي: ومن الطرق ما هو ﴿جَائِرٌ﴾، أي: مائل عن الاستقامة، معوج. فالقصد من السبيل: دين الإسلام، والجائر منها ما سواه من اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه في مواقيت الحج قال: لمَّا فُتِحَ هذانِ المِصرانِ أتَوا عُمَرَ، فقالوا: يا أميرَ المُؤمِنينَ، إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَدَّ لأهلِ نَجدٍ قَرنًا، وهو جَورٌ عن طَريقِنا، وإنَّا إن أرَدنا قَرنًا شَقَّ علينا، قال: فانظُروا حَذْوَها مِن طَريقِكُم، فحَدَّ لهم ذاتَ عِرق [3].

---

1 - أخرجه البخاري (5520)، ومسلم (1941) باختلاف يسير، وانظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص644).

2 - أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل: 5 / 308، وقال: "وهذا منسوخ، وقد أكل الخيل جماعة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابن الزبير، وفضالة بن عبيد، وأنس بن مالك، وأسماء بنت أبي بكر، وسويد بن غفلة، رضي الله عنهم، وكانت قريش في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذبحها". قال المنذري: والحديث ضعيف.

3 - أخرجه البخاري (1531) من أفراد البخاري على مسلم.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه: "قَصْدُ السَّبِيلِ": بَيَانُ الشَّرَائِعِ وَالْفَرَائِضِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَسَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: "قَصْدُ السَّبِيلِ" السُّنَّةُ، "وَمِنْهَا جَائِرٌ" الْأَهْوَاءُ وَالْبِدَعُ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الْأَنْعَامِ:153] [1].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خطًّا بيدِه ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ مستقيمًا، وخطَّ خطوطًا عن يمينِه وشمالِه، ثم قال : هذه السبلُ ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكم عَنْ سَبِيلِهِ[2].

ومعنى (جور) هنا – كما في الآية - أي مائلٌ عن طَريقهم، فإذا ذَهَبْوا إليه بعَينِه أصابَتْهم مَشقَّةٌ مِن ذلك.

*﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

التدرج الآفاقي: الانتقال من نعمة الخلق والرعي إلى نعمة الماء المنزل ونبات الأرض.

﴿تُسِيمُونَ﴾ ترعون مواشيكم، وفي كتاب أبي بكر الذي أرسله إلى أنس رضي الله عنهما: وفي صَدَقةِ الغَنَمِ في سائِمَتِها إذا كانَت أربَعينَ إلى عِشرينَ ومِئةٍ؛ شاةٌ، فإذا زادَت على عِشرينَ ومِئةٍ إلى مِئَتَينِ شاتانِ، فإذا زادَت على مِئَتَينِ إلى ثَلاثِ مِئةٍ، ففيها ثَلاثُ شياهٍ، فإذا زادَت على ثَلاثِ مِئةٍ، ففي كُلِّ مِئةٍ شاةٌ [3].

وقد اختلف العلماء في اشتراط السوم في زكاة الأنعام، فذهب مالك والليث بن سعد إلى عدم اشتراطه فأوجبوا الزكاة في بهيمة الانعام، سواء كانت سائمة أو معلوفة.

وذهب جمهور العلماء إلى اعتبار السوم شرطاً في وجوب الزكاة فيها، أمَّا المَعلوفةُ فلا زَكاةَ عليها هنا، ما لكم تكن عروض تجارة فتزكى زكاة العروض.

والسوم: هو أن يكون غذاؤها على الرعي من كلأ ونبات الأرض معظم الحول.

الفواصل التفكريّة: ختم بـ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن إخراج زروع وثمار مختلفة الأشكال والسقي بماء واحد يتطلب إعمال الفكر والنظر العميقيْن للوصول إلى الصانع الحكيم.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص645).
2 - أخرجه أحمد (4142)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11174)، والدارمي (202) باختلاف يسير، قال ابن باز وغيره: سنده صحيح.
3 - أخرجه البخاري (1454)، من أفراد البخاري على مسلم.

*﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ مذللات، ﴿بِأَمْرِهِ ۗ﴾ أي: بإذنه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

الاتساع الفلكي: الانتقال من الأرض إلى أفق أوسع وهو تسخير الكون الفسيح.

ختام الآية: ختم بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأن حركات الكواكب وانضباط الليل والنهار تحتاج إلى عقل يربط الأسباب بمسبباتها وينتقل من انتظام الأثر إلى قدرة المؤثر.

*﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا﴾ نصب على الحال، ﴿أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعتبرون.

﴿ذَرَأَ﴾ خلق وبثّ. واختلاف الألوان شامل للمعادن، النباتات، الحيوانات، والجبال.

ختام الآية: ختم بـ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ لأن تنوع المشاهد أمام العين تذكير مستمر لا يحتاج إلا لقلب متيقظ يذكر نعمة ربه.

*﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ والمرجان، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قال فتادة: مقبلة ومدبرة، وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل، والأخرى تدبر، تجريان بريح واحد. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ وهي التجارة، كما في سورة البقرة في آيات الحج ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:198]،

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم فنزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج [1].

قال ابن كثير: وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وغير واحد، عن سفيان بن عيينة، به.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إذا رأيتم صنع الله فيما سخر لكم. وصف السمك بـ ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لإظهار سرعة فساده ولطف الله في تيسيره، ووصف اللؤلؤ والمرجان بـ ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع ماخرة، وهي التي تشق الماء بصوتها وحركتها، صورة حية لحركة السفن الجارية في لجج البحار، قال البغوي: وأصل المخر الرفع والشق، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: صَوَائِخُ، وَالْمَخْرُ: صَوْتُ هُبُوبِ الرِّيحِ عِنْدَ شِدَّتِهَا.

---

1 - أخرجه البخاري(2050)

*﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾،

﴿وَعَلَامَاتٍ﴾، يَعْنِي: مَعَالِمَ الطُّرُقِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: هَاهُنَا تَمَّ الْكَلَامُ ثُمَّ ابْتَدَأَ، ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾،

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالْكَلْبِيُّ: أَرَادَ بِالْعَلَامَاتِ الْجِبَالَ، فَالْجِبَالُ تَكُونُ عَلَامَاتِ النَّهَارِ، وَالنُّجُومُ عَلَامَاتُ اللَّيْلِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا خَلْقَ اللَّهُ النُّجُومَ لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: لِتَكُونَ زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَمَعَالِمَ لِلطُّرُقِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، فَمَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ [1].

الاستقرار الجغرافي: تثبيت الأرض بالجبال ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تضطرب، وشق الأنهار والسبل مع علامات أرضية وسماوية (النجم) للهداية في الأسفار.

*﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ يعني: الله جل وتعالى، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، يعني: الأصنام، حجة عقلية قاطعة تظهر سذاجة الشرك، وعَبَّر بـ ﴿نِعْمَةَ﴾ بالمفرد أولاً: لان العرب تعامل لفظة النعمة كالرحمة، غالبا ما تأتي مفردة، وثانياً: للتدليل على أن النعمة الواحدة تحتوي في طياتها من التراكيب والرحمات ما لا يستطيع البشر حصره عدّاً فضلاً عن القيام بشكره؛ ولذلك جاءت الخاتمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تسليّة للعباد عن تقصيرهم في الشكر.

قال ابن عاشور – رحمه الله -: وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هناك (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [إبراهيم:34]، لان تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا)، فكان المناسب تسجيل ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين، كما كانت النعم المعدودة فيها منتفع بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن في سورة إبراهيم إشارة إلى أن تلك النعم كانت سبباً لظلم الإنسان وكفره، وهي هنا سبب لغفران الله ورحمته، والأمر بذلك منوط بعمل الإنسان[2].

---

1 - أخرجه البخاري معلقاً، ووصله الطبري في التفسير (، وانظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص646).

2 - انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج4/ص270).

*﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

سلب الصفات: سلب كامل صفات الألوهية عن الأصنام والأنداد: لا يخلقون، فهم مَخلُوقون، أموات، لا ينعمون بالحياة، ولا يعلمون متى يُبعثون.

وهو قريب من قوله جل وتعالى على لسان إبراهيم – عليه السلام - لقومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:17] أي: تنحتون وتصنعون بأيديكم هذه الأصنام والأوثان، ثم تفترون كذباً وزوراً بتسميتها واخاذها آلهة، وأنّ لها شركاً مع الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

تأكيد الموت: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ تأكيد لنفي الحياة العضوية والمعنوية عنها لقطع أي أمل للمشركين فيها.

*﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

هنا كشف السبب الحقيقي للكفر والشرك وأصل الداء ليس نقص الدلائل، بل الإنكار القلبي والكبر النفسي ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

الوعيد الخفي والظاهر: ﴿لَا جَرَمَ﴾ (حقاً وثبوتاً)، تحذير من استكبارهم لأن الله يعلم أسرارهم وعلانيتهم ويبغض المتكبرين.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يدخلُ الجنَّةَ من كانَ في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْرٍ، ولا يدخلُ النَّارَ مَن كانَ في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ. فقال رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ، الرَّجلُ يحبُّ أن يَكونَ ثوبُه حسنًا، ونعلُه حسنةً، فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: إنَّ اللَّهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، إنَّ الكِبْرَ مَن بطِرَ الحقَّ وغمَصَ النَّاسَ[1].

*﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أحاديثهم وأباطيلهم، الموقف الساخر وعاقبته: حين يُسألون عن الوحي يزعمون أنه خرافات قديمة ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ صدّاً عن سبيل الله.

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف دل عليه ما في السؤال، والتقدير: هو – المسؤول عنه - أساطير الأولين.

1 - أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ج2/ص898)، ومسلم (91) باختلاف يسير.

وعلم من ذلك – أي من رفع (أساطير) نفيهم أن يكون القرآن منزلا من ربهم سبحانه، وإلاّ لكان (أساطير) منصوباً ليكون التقدير: أنزل أساطير، وحينئذ يكون كلامهم متناقضا، لأن أساطير الأولين السابقة لا تكون الذي أنزل الله الآن[1].

جزاء الإضلال: اللام في ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ لام الصيرورة والمآل؛ أي آلت مقالتهم هذه إلى تحمل ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوب أنفسهم، ﴿كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، قال البغوي – رحمه الله - : وإنما ذكر الكمال؛ لأنّ البلايا التي تلحقهم في الدنيا، وما يفعلونه من الحسنات لا تكفر عنهم شيئا، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير حجة فيصدونهم عن الإيمان، ثمّ زجرهم ووبخهم بقوله سبحانه: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن دعا إلى هُدًى كان له مِن الأجرِ مِثْلُ أجورِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ مَن تبِعهُ لا ينقُصُ ذلك مِن آثامِهم شيئًا[2].

*﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

نَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ، بَنَى الصرح ببابل ليصعد السَّمَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَوَهْبٌ: كَانَ طُولُ الصَّرْحِ فِي السَّمَاءِ خَمْسَةَ آلَافِ ذِرَاعٍ. وَقَالَ كَعْبٌ وَمُقَاتِلٌ: كَانَ طُولُهُ فَرْسَخَيْنِ فَهَبَّتْ رِيحٌ وَأَلْقَتْ رَأْسَهُ فِي الْبَحْرِ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ الْبَاقِي وَهُمْ تَحْتَهُ، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أَيْ: قَصَدَ تَخْرِيبَ بُنْيَانِهِمْ مِنْ أصولها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ يَعْنِي أَعْلَى الْبُيُوتِ ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من مأمنهم.

*﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يُهِينُهُمْ بِالْعَذَابِ، ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تخالفون المؤمنين فِيهِمْ، - من الشقاق الذي هو الخلاف والعداوة والخصومة، وأصله من الانصداع والتفرق - مَا لَهُمْ لَا يَحْضُرُونَكُمْ فَيَدْفَعُونَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ؟ وَكَسَرَ نَافِعٌ النُّونَ مِنْ (تُشَاقُّونَ) عَلَى الْإِضَافَةِ، وَالْآخَرُونَ بِفَتْحِهَا. ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم المؤمنون، ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ الهوان، ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ أي: العذاب، ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [3].

*﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

---

1 - انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص275).

2 - أخرجه مسلم (2674)، وأبو داود (4609) وأحمد (9160)، وابن حبان (112)، وأبو يعلى (530)، واللفظ لهم.

3 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص648).

المشهد الأخروي والمحاكمة: بعد أن وبخهم سبحانه بسؤال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ إظهاراً لعجز الأصنام وتكذيباً لهم.

جاءت شهادة أصحاب العلم تشهيراً بالكفار وإعلان الخزي عليهم على رؤوس الأشهاد.

الاستسلام الكاذب عند الموت: يلقون السلم والانقياد ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ نكراناً للباطل، فيردّ عليهم بالعلم الإلهي المحيط: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

المصير النهائي: الجزاء وفاق الذنب؛ لمّا استكبروا عن الحق في الدنيا، كان جزاؤهم الهوان والخلود في جحيم ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

والكذب دأب الكافرين في الدنيا والآخرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه سلم: يَجِيءُ نوحٌ وأُمَّتُه، فيقولُ اللهُ: هل بَلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعم أَيْ رَبِّ! فيقولُ لِأُمَّتِهِ: هل بَلَّغَكم؟ فيقولونَ: لا؛ ما جاء لنا من نبيٍّ، فيقولُ لنوحٍ. مَن يَشْهَدُ لك؟ فيقولُ: مُحَمَّدٌ وأُمَّتُه، وهو قولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، والوَسَطُ: العدلُ، فيُدْعَوْنَ، فيَشْهَدُونَ له بالبلاغِ، ثم أَشْهَدُ عليكم[1].

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (32) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(34) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (37) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (40) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(42) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا

1 - أخرجه البخاري (3339) واللفظ له، والترمذي((5/ 207)) بنحوه، وابن ماجه (4284) دون ذكر نوح..

رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩(50))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة النحل لوحةٍ قرآنيةٍ متكاملة، تتصيد مواطن النفس البشرية في إقبالها وإدبارها، وتُقابل بين ثنائية الهداية والضلال، والجزاء والعقاب، بأسلوبٍ بيانيٍّ يُبهر العقول، ويستجيش العواطف.

جزاء المتقين ولذة الخطاب الإلهي: *﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا﴾.

قُوبل هذا السؤال بما أُورد سابقاً في حق المستكبرين حين قيل لهم: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قال ابن عاشور – رحمه الله – والمعنى أن المؤمنين سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، ولم يترددوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة (خيرا) المنصوبة، فإن لفظها شامل لكل خير في الدنيا وكل خير في الآخرة، ونصبها دال على أنهم جعلوها معمولة لـ (أنزل) الواقع في سؤال السائلين، فدل النصب على أنهم مصدقون بأن القرآن منزل من عند الله، وهذا وجه المخالفة بين الرفع في جواب المشركين (أساطيرُ الأولين)، وبين النصب في جواب المؤمنين (قالوا خيرا) [1]..

وقال البغوي – رحمه الله -: وَذَلِكَ أَنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانُوا يَبْعَثُونَ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ مَنْ يَأْتِيهِمْ بِخَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا جَاءَ سَأَلَ الَّذِينَ قَعَدُوا عَلَى الطُّرُقِ عَنْهُ، فَيَقُولُونَ: سَاحِرٌ، كَاهِنٌ، شَاعِرٌ، كَذَّابٌ، مَجْنُونٌ، وَلَوْ لَمْ تَلْقَهُ خَيْرٌ لَكَ، فَيَقُولُ السَّائِلُ: أَنَا شَرُّ وَافِدٍ إِنْ رَجَعْتُ إِلَى قَوْمِي دُونَ أَنْ أَدْخُلَ مَكَّةَ فَأَلْقَاهُ، فَيَدْخُلُ مَكَّةَ فَيَرَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُخْبِرُونَهُ بِصِدْقِهِ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ يَعْنِي: أَنْزَلَ خَيْرًا.

ثُمَّ ابْتَدَأَ واستأنف فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كَرَامَةً مِنَ اللَّهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ تَضْعِيفُ الْأَجْرِ إِلَى الْعَشْرِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هِيَ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الرِّزْقُ الْحَسَنُ.

1 - انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج6/ص283).

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ وَلَدَارُ الْحَالِ الْآخِرَةِ، ﴿خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: هِيَ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ أَهْلَ التَّقْوَى يَتَزَوَّدُونَ فِيهَا لِلْآخِرَةِ. وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: هِيَ الْجَنَّةُ، ثُمَّ فَسَّرَهَا فَقَالَ[1]:

*﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: العدن هو الإقامة والخلود. يلاحظ سيد قطب التفصيل المتدرج للنعيم: إقامةٌ دائمة، طبيعةٌ حية غناء (أنهار)، ومطلق الإرادة والحريّة ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ للتأكيد على أن نِعم الدنيا قاصرة، بينما نعيم الآخرة ملبٍّ لجميع رغبات النفس البشرية دون كدر.

*﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ﴾ مؤمنين طاهرين من الشرك، قال مجاهد: زاكية أفعالهم وأقوالهم، ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني الملائكة لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾: قيل: يبلغونهم سلام الله.

يستحضر ابن القيم هنا مشهد النزع والاحتضار؛ ففي الوقت الذي تتنزل فيه الملائكة بالبشرى والسلام، تكون الأرواح في أتم طمأنينة وراحة. وتنكير "سلام" يدخل في باب التعظيم والإكرام.

سنن وحصاد الاستهزاء: *﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني: يوم القيامة: وقيل: العذاب.

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: كَفَرُوا، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بِتَعْذِيبِهِ إِيَّاهُمْ، {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [بكفرهم وتكذيبهم]، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ عُقُوبَاتُ كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمِ الْخَبِيثَةِ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ} [نَزَلَ بِهِمْ] {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

*﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَعْنِي: الْبَحِيرَةَ، وَالسَّائِبَةَ، وَالْوَصِيلَةَ، وَالْحَامِ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ رَضِيَهَا لَغَيَّرَ ذَلِكَ وَهَدَانَا إِلَى غَيْرِهَا، ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ: لَيْسَ إِلَيْهِمُ الْهِدَايَةُ إِنَّمَا إِلَيْهِمُ التَّبْلِيغُ[2]، أو ليس عليهم إلاّ هداية الدلالة والإرشاد، أمّا هداية التوفيق والإلهام فهذه لله وبيد الله جل وتعالى.

إشراقة بلاغية: الاستفهام للإنكار والتوبيخ. تُلقي الآية بظلالها على العناد البشري الذي لا يستفيق إلاّ في اللحظات الأخيرة؛ إما عند قبض الأرواح وإما عند نزول العذاب الدنيوي الهالك.

*﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: في التعبير التجسيدي الجمالي ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، يتبين أن أعمالهم الخبيثة نفسها تحولت

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص648).
2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص649).

إلى عقابٍ يحيط بهم، كما أنّ التعبير بـ ﴿وَحَاقَ﴾ يدل على الإحاطة التي لا مفر منها كالحبس والوعاء.

التعلل بالقدر والحجة الرسالية: *﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾: شُبهة المشركين القديمة-الجديدة الاحتجاج بالقدر على الشرك! يوضح ابن تيمية – رحمه الله - في كتاباته أن هؤلاء خلطوا بين الإرادة الكونية القديرية (التي تقع بها الكائنات) والإرادة الشرعية الدينية (التي يحبها الله ويرضاها). زعموا أن مجرد وقوع شركهم دليلٌ على رضا الله عنه.

إشراقة بلاغية: رُدَّ عليهم بالقاعدة الناجزة: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، فالرسل أقاموا الحجة وفكّوا الارتباط بين وقوع القدر وإباحة الفعل.

*﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: قاعدة دعوية جامعة؛ محورية التوحيد ونبذ الطاغوت (كل ما يُعبد ويُطاع من دون الله) كشرطٍ أساسي لكل الرسالات عبر التاريخ.

الأسلوب: الأمر بالسير في الأرض ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ استقراءٌ لمصارع المكذبين وأطلالهم ليكون الشاهد الحسي داعماً للبرهان العقلي.

*﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾: خطاب موجه لرسول الله ﷺ للتسلية والرفع من حرجه النفسي؛ حيث تتجلى حكمة الباري في أن من أصر على الغي واستحب العماية، خُلِّي بينه وبين ما اختار، فلا تنفع معه حماسة الداعية ولا حرصه.

طغيان الشك بالبعث وتجلي القدرة الإلهية: *﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

قوله: ﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر مؤكد للقسم، أي بأغلظ الأيمان وأشدها توكيداً. يرسم القرآن هنا الصورة النفسية للمشرك الغارق في عالم المادة، العاجز عن تخطي ظاهر الحياة الدنيا.

*﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾: إشراقة بلاغية: تقرير لسهولة الخلق والإعادة. يصف ابن عاشور هذه الآية بأنها القمة في اختزال القدرة المطلقة؛ فلا احتياج لمادة أو زمن أو معالجة، بل محض الإرادة الجازمة والكلمة النافذة ﴿كُن﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يَكن ينبغي لهُ أن يُكذِّبني وشتَمني ابنُ آدمَ ولم يَكن ينبغي لهُ أن يشتُمَني أمَّا تَكذيبُه إيَّايَ فقولُه إنّي لا أعيدُه كما بدأتُه وليسَ آخِرُ الخلقِ بأعزَّ عليَّ من أوَّلِه وأمَّا شتمُه إيَّايَ فقولُه {اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} وأنا اللَّهُ [الأحدُ] الصَّمدُ لم أَلِد ولم أولَد ولم يَكن لي كفُوًا أحدٌ[1].

جزاء المهاجرين وصفات الثبات: *﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ عذبوا وأوذوا في الله، نزلت في بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وجبر وأبي جندل بن سهيل بن عمرو، أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: وهو أنّه أنزلهم بالمدينة مع حبيبهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل معناه: لنحسنن عليهم في الدنيا.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ قوله (لو كانوا يعلمون ينصرف إلى المشركين، لأنّ المؤمنين كانوا يعلمونه.

تحول السياق من مكذبي المشركين إلى نموذج التضحية المطلقة (المهاجرين). تعويض المظلوم سنة إلهية؛ فالمنـزل الحسن والرفعة بالدنيا أول البشائر قبل الأجر الأكبر بالآخرة.

*﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: جاء الفعل ﴿صَبَرُوا﴾ بصلة الماضي للدلالة على ثبات واستقرار هذه الصفة فيهم وتجذرها، بينما جاء التوكل بصيغة المضارع ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ للإشارة إلى تجدد واستمرار على الله في كل نازلة.

طبيعة الرسالة ومهمة البيان: *﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾

يرد القرآن على استبعاد الكفار بشرية الرسول؛ فالسنّة الإلهية اقتضت إرسال رجال من البشر. والمراد بـ "أهل الذكر" هنا -كما يذكر البغوي- هم أهل الكتب السالفة ممن يعلمون أحوال الأنبياء السابقين.

*﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: إشراقة بلاغية: فرّق السياق بين "الذِّكْر" المنزَل على النبي، وبين "مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ"، ليؤكد على منزلة السنة الشارحة والمبينة سنة النبوي صلى الله عليه وسلم، حيث أراد بالذكر الوحي، وكان النبي ﷺ مبيناً للوحي بأقواله وأفعاله وتقريراته، وبيان الكتاب يطلب من السنة، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقد حث القرآن كثيراً على التفكر، لأن التفكر السليم يقول إلى الإيمان، يراجع للمزيد كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (درء تعارض العقل والنقل.

---

1 - أخرجه البخاري (4974، 4482)، والنسائي (2078) واللفظ له، وأحمد(9114)

مشاهِد العذاب والمفاجأة: *﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

استفهام تهديدي ينخلع له القلْبُ. تتنوع أنماط العقاب بين: الخسف الأرضي من أسفل، أو مباغتة العذاب من حيث لا يشعرون.

*﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: الأخذ في التقلب (أثناء أسفارهم وتقلبهم في التجارة والمعاش)، أمّا الأخذ على تخوف أي: على تنقص تدريجي للنعمة والأنفس، ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم.

*﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أمهلهم ولم يجعل بالعقوبة. الختام باسمي "الرؤوف الرحيم" بعد ألوان العذاب المتوقعة فيه التفاتة لطيفة لرأفته ورحمته؛ إذ لم يعاجلهم بالعقوبة بل أمهلهم ونظرهم للتابة.

سجود الكون والاستسلام القهري والاختياري: *﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾:

يرسم القرآن لوحة كونية بديعة تجعل الظلال المتفيئة حركة سجود خاضعة. يوضح ابن القيم في بدائع الفوائد أن ميل الظلال وانتقالها من جانب إلى جانب هو سجود انقياد واضطرار لجميع المخلوقات التي لها ظل.

*﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾:

تخصيص الملائكة بالذكر بعد التعميم *﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: لفضلهم وشرفهم. وتبرز الآية جلال العظمة الإلهية عبر إثبات الفوقية لله تعالى ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾: (فوقية القهر والذات والمكانة)، واقتنص القرآن تعظيم خوف الملائكة المقربين ليُخجل الإنسان المستكبر الذي يستنكف عن طاعة ربه، أمّا الملائكة فإنهم لا يستكبرون ويأتمرون لأمره بلا توانٍ.

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنِّي أرَى ما لا ترَونَ وأسمعُ ما لا تسمَعون، أطَّتِ السماءُ وحق لها أن تَئِطَّ؛ ما فيها موضِعُ أربعِ أصابِعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ لله ساجدًا. واللهِ لو تَعلمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلًا ولبَكَيتُمْ كثيرًا، وما تَلَذَّذْتُمْ بالنساءِ على الفُرُشِ، ولخَرَجْتُمْ إلى الصَّعُدَاتِ تجْأَرونَ إلى اللهِ. لوَدِدْتُ أنِّي كنتُ شجرةً تُعْضَدُ[1].

---

1 - أخرجه الترمذي (2312) ابن ماجه (4190)، وأحمد (21516) باختلاف يسير، وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني مختصراً بشواهده.

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (62) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(64) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (66) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ(72) يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(74))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس المبارك من سورة النحل (سورة النِّعَم) ملحمة بيانية وتوحيدية تأخذ بالنفس في رحلة تصاعدية؛ تبدأ بقطع دابر الشرك والتوجه بالخوف والطاعة لله وحده، مرورًا بتفكيك النفسية الجاهلية وتناقضاتها، وصولًا إلى استعراض آيات الله في الكون والأنفس والنعم الظاهرة والباطنة.

تأصيل التوحيد واستحقاق العبادة: *﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

نهي مؤكد بالتثنية ﴿اثْنَيْنِ﴾ لرفع توهم المشاكلة أو تعدد الذوات؛ فالعدد هاهنا للنص على الصفة ونفي التعدد نهائيًا.

كما أنّ أسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ يقرر الحقيقة المطلقة. وتقديم المفعول به في ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ يُفيد الاختصاص والتخصيص؛ أي: لا ترهبوا أحدًا غيري.

اللطيفة السياقية: جاء تقديم الرهبة هنا لأن السياق سياق نِعَم ومُنعِم، والجاهل بالنعم يطغى، فرادعه الخوف والرهبة.

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام: أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أو يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود -عليه السلام- إنهم قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِ جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ [هود:54]. وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:36]. وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها، ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفا من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد. وهذا هو سبب نزول هذه الآية. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:173].

وفي الحديث: " إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: رب خشية الناس. فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى" [1].

الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك. فهذا لا يذم، كما قال تعالى في قصة موسى -عليه السلام-: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:21].

*﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، تقديم الخبر ﴿وَلَهُ﴾ يفيد الحصر والملك المطلق. كلمة ﴿وَاصِبًا﴾ دائماً ثابتا، والمعنى: ليس من أحد يدان له ويطاع إلاّ انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك، غير الله عز وجل، فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع.

---

1 - أخرجه ابن ماجه (4008)، وأحمد (11255) باختلاف يسير، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط وغيره.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: تخافون، استفهام على طريق الإنكار، جاءت همزة الإنكار لتوبخ مَن يصرف تقواه وخوفه للعدم الفاني ويترك الخالق الباقي.

*﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾: ﴿مَا﴾ شرطية أو موصولة تفيد العموم والاستغراق، و﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾ استغراق للكتل والجزيئات؛ فكل نفس وهواء وحركة هي من الله.

استعمال الفعل ﴿تَجْأَرُونَ﴾ -الجُؤار هو ارتفاع صوت البهيمة عند الضائقة- يصور المشهد النفسي البشري عند سقوط الأقنعة ووصول الفطرة إلى قاع الاضطرار، فيلجأ الإنسان بالصراخ والتضرع لمن يعلم أنه القادر وحده.

*﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ إذا الفجائية، تعكس السرعة المذهلة والعجيبة في انحراف النفس البشرية؛ بمجرد زوال الخطر تعود إلى شركها، وهو تقريع لطبيعة كفران الجميل.

وقد سمعت بمن أسلم ونطق شهادة التوحيد حين خشي سقوط طيارة رحلته، فلما نجى انتكس وقال: ذلك كان فوق.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُكثرُ أن يقولَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينِك فقلت يا نبيَّ اللهِ آمنَّا بك وبما جئتَ به فهل تخافُ علينا؟ قال نعم إن القلوبَ بينَ إصبعينِ من أصابعِ اللهِ يُقلِّبُها كيفَ يشاء[1].

وفي محكم التنزيل علمنا الله أن ندعوه ونسأله الثبات في الدين: *﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8]

تفكيك النفسية الجاهلية وتناقضاتها: *﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فسبب شرك الإنسان ليس لنقص الدليل، وإنما السبب هو رغبته في الانفلات القلبي، وكفران نعمة الله جل وتعالى.

اللام هنا لام العاقبة والصيرورة (أو الأمر للتحديد والتهديد). التهديد في ﴿فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يحمل إيجازًا بالوعيد الشديد، حيث جاء الوعيد مبهمًا ليُحدث رهبة أكبر في النفس.

*﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾: ينبه ابن القيم وسيد قطب - رحمهما الله - أنّ الانحراف العقدي يصحبه انحراف اقتصادي واجتماعي. جعلوا لأصنامهم -التي لا تعلم ولا تنفع- جزءًا مما رزقهم الله! القسم التأكيدي ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ تشديد في الحساب على هذا الافتراء.

---

1 - أخرجه الترمذي (2140)، وأحمد (13696) باختلاف يسير، وابن ماجه (3834) بنحوه، وقال المناوي في كشف المناهج والتناقيح (ج1/ص112): رجاله رجال صحيح مسلم.

*﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾: خزاعة قالت: الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾: أي يجعلون لأنفسهم البنين الذين يشتهون نصرتهم وفتوتهم، ثمّ نزه نفسه ﴿سُبْحَانَهُ﴾، جاء التنزيه معترضًا بين جنايتهم ودناءة قسومتهم. أنسبوا لله ما يكرهون لأنفسهم (البنات) واختصوا أنفسهم بما يشتهون (الذكور)، وهو غاية التناقض والانتكاس الفكري.

*﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: متغيراً من الغم والكراهة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: ممتلئ حزناً وغيظاً، فهو يكظمه أي يمسكه ولا يظهره.

إشراقة بلاغية: من أعجب ما سُجل في الأدب القرآني من تشريح للجاهلية حين البشارة بالمولود الأنثى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: صورة حركية ألوانية للعار النفسي الذي ينعكس ظاهريًا، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: مملوء بالغم والغيظ المكتوم.

*﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

﴿يَتَوَارَىٰ﴾: أي يختفي، حركة الهروب والاختفاء من المجتمع، ثم التردد العجيب بين ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ (يبقيه حيًا ذليلًا) أو ﴿يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ (الوأد والقتل)!

ثم التعقيب الحاسِم: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ قضاء فاسد وقسوة تجردت من الرحمة والعدل.

*﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

إشراقة بلاغية: مقابلة بين "مثل السوء" (الجلل والنقص والجهل والوأد) الملازم لأهل الشرك، وبين "المثل الأعلى" (الصفات العلا، الكمال المطلق، التنزيه) لله عز وجل.

وقد أشار الله سبحانه في غير هذا الموضع إلى قتل الأبناء، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31]، وقال سبحانه: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ [الأنعام:151]، فهذه الأمور الثلاثة التي كانت بعض قبائل العرب ربما قتلت أولادها أو بناتها من أجلها: الفقر، أو خشية الفقر، أو خشية الفضيحة وعار الزنا.

سنة الإمهال وحكمة الرسالة: *﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ...﴾.

العمق السياقي: رحمة الله تسبق غضبه؛ لو أخذ الناس بظلمهم العاجل لمحت العقوبة كل متحرك على ظهر الأرض، لكن سنته اقتضت الإمهال إلى أجل مسمى لا يستأخرون عنه ولا يستقدمون.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُملي للظَّالِمِ، فإذا أخَذَه لَم يُفلِتْه، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وكَذلك أخذُ رَبِّك إذا أخَذَ القُرى وهي ظالِمةٌ إنَّ أخذَه أليمٌ شَديدٌ﴾ [1].

*﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: ما يكرهون لِأَنْفُسِهِمْ، يَعْنِي: الْبَنَاتِ، ﴿وَتَصِفُ﴾. أَيْ: تَقُولُ، *﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾: يَعْنِي الْبَنِينَ، مَحَلُّ "أَنَّ" نَصْبٌ بَدَلٌ عَنِ الْكَذِبِ.

وقَالَ يَمَانٍ: يَعْنِي بِـ "الْحُسْنَى": الْجَنَّةَ فِي الْمَعَادِ، إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فِي الْبَعْثِ.

﴿لَا جَرَمَ﴾: حَقًّا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَلَى، ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾: فِي الْآخِرَةِ، ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾: قَرَأَ نَافِعٌ بِكَسْرِ الرَّاءِ أَيْ: مُسْرِفُونَ، وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا أَيْ: مُضَيِّعُونَ أَمْرَ اللَّهِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَتَخْفِيفِهَا أَيْ: مَنْسِيُّونَ فِي النَّارِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾: قال الفراء: مقدمون إلنار، ومنه ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا فرَطُكم على الحوضِ وليختلجنَّ رجالٌ دوني فأقولُ: يا ربِّ أصحابي فيقال: إنك لا تدْري ما أحدَثوا بعدكَ[2]، فرطكم أي: متقدكم.

*﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناك إلى هذه الأمة، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾،

تسلية للرسول ﷺ: قسم من الله للترفيه عن قلب النبي ﷺ بأن التكذيب سنة الأولين، وأن الشيطان هو الولي الزائف الذي غرر بهم، سماه وليّاً لهم لطاعتهم إياه.

*﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ﴾ من الدين والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

حصر الغاية من تنزيل الكتاب في البيان والرفع للخلاف، وكونه مصدراً للهداية والرحمة لمن كان في قلبه استجابة وإيمان، فالهدى والرحمة عطف على قوله: (لتبين).

كتاب النعم الكونية والآيات المشهودة: ثم ينتقل السياق نقلة آخذة بالألباب؛ من ظلمات الانحراف الجاهلي إلى أنوار العظمة الإلهية في الطبيعة والكون.

---

1 - أخرجه البخاري (4686) باختلاف يسير، وأخرجه مسلم (2583) وهذا لفظه.
2 - أخرجه البخاري (6576)، ومسلم (2297) باختلاف يسير

*﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

الربط المعنوي: كما ينزل الماء فيحيي الأرض الميتة، ينزل القرآن فيحيي القلوب الميتة. وختم الآية بـ ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سمع القلوب أي سمع تدبر وتفكر ابتغاء الطاعة والإتباع، لا سمع الآذان.

*﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾

المعجزة هنا؛ تخرج هذه المادة النقية البيضاء المغذية (اللبن) من بين مستقذرين: الفرث (الغذاء المضمحل في الكرش) والدم!

﴿خَالِصًا﴾: لا يتأثر بلون الدم ولا برائحة الفرث، ﴿سَائِغًا﴾: يمر بسهولة في الحلق، تلذ به الطباع، وتستفيد منه الأبدان.

*﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ أي: ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخير الأعناب، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

اللمحة اللسانية والتربوية: جُمِع بين "السكر" (ما يعربد بالعقل، وكان هذا قبل تحريم الخمر، ذهب إلى هذا ابن مسعود، وابن عمر، وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد) و"الرزق الحسن" (التمر، الزبيب، الخل، العصير) للتلميح والتعريض بالفرق بين الاستعمال الخبيث والاستعمال الطيب، وقيل غير ذلك. وختم بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأن العقل هو الذي يُميز بين النفع والضرر والرزق الحسن وما يذهب بالعقل.

قال البغوي: وأولى الأقاويل أن قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ منسوخ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (السكر) ما حرم من ثمرها، و(الرزق الحسن) ما أحل[1].

*﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وحي إلهام، أي ألهمها وقذف في أنفسها، وجعل ذلك فطرة لها، ففهمته، ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (يعرشون) أي: يبنون.

في بعض كتب أسرار الإعجاز العلمي للقرآن: بعد دراسات طويلة على أنواع العسل تبين أنّ أفضل أنواع العسل هو العسل الجبلي، قالوا: هذا النوع يمتلك طاقة شفائية عالية.

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص655).

ويأتي عسل الشجر في المرتبة الثانية من حيث الجودة واحتوائه على مواد شفائية، ويأتي في المرتبة الثالثة ما يقوم البشر بتربيته في أماكن خاصة تهيأ للنحل. وكذا في قيمته السوقية فما يجمع من الجبال قيمته السوقية أعلى بكثير من غيره. والله أعلم [1].

*﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

عجائب الإيحاء والنظم: ﴿وَأَوْحَىٰ﴾: إلهام وفطرة وتسخير إلهي بديع، استخدام تاء التأنيث ﴿اتَّخِذِي﴾، ﴿كُلِي﴾، ﴿فَاسْلُكِي﴾: إعجاز لغوي وتطابق علمي، فالتي تبني وتجمع العسل وتسلك الطرق هي النحلة الأنثى (العاملات).

﴿سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾: الطرق ممهدة ومسخرة لها لا تضل فيها، ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾: تنوع ألوان العسل بحسب المأكولات، وجعل الشفاء فيه.

التذييل بـ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: لأن نظام حياة النحل ودقتها وهندستها تحتاج إلى عمق تفكر وتأمل لا مجرد نظر سطحي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إنَّ أخي استَطلَقَ بَطنُه، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اسقِه عَسَلًا، فسَقاه، ثُمَّ جاءَه فقال: إنِّي سَقَيتُه عَسَلًا فلَم يَزِدْه إلَّا استِطلاقًا، فقال له ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جاءَ الرَّابِعةَ فقال: اسقِه عَسَلًا، فقال: لقد سَقَيتُه فلَم يَزِدْه إلَّا استِطلاقًا، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: صَدَقَ اللهُ، وكَذَبَ بَطنُ أخيكَ، فسَقاه فبَرَأ. [2].

*﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

الطور الإنساني: نقلة من الآفاق إلى الأنفس؛ دورة الحياة البشرية من الضعف إلى القوة ثم الرد إلى الخرف وضعف الذاكرة (أرذل العمر)، ليعلم الإنسان عجزه المطلق وأن العلم والقوة لله وحده ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، قال مقاتل: أرذل العمر يعني الهرم، وقال قتادة: أرذل العمر تسعون سنة.

---

1 - انظر أسرار الإعجاز العلمي: أنواع العسل على الشبكة العنكبوتية.

2 - أخرجه البخاري (5716)، ومسلم.(2217)

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو: اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ البُخلِ، وأعوذُ بِكَ منَ الجُبنِ، وأعوذُ بِكَ أن أُرَدَّ إلى أرذلِ العمرِ، وأعوذُ بِكَ مِن فتنةِ الدُّنيا، وأعوذُ بِكَ مِن عذابِ القبرِ[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أعذَرَ اللهُ إلى امرِئٍ أخَّرَ أجَلَه حتَّى بَلَّغَه سِتِّينَ سَنةً[2].

أي أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَعذَرَ إلى امرئٍ؛ أي: قطَعَ عُذْرَه في ارتكابِ المعاصي، وعلامةُ هذا الإعذارِ أن أطال اللهُ عُمَرَ هذا الإنسانِ، فمَن طال عُمرُه حتَّى بلَغ ستِّين عامًا، لم يَبْقَ له عُذرٌ في اقْترافِ الخَطايا؛ لأنَّه يَجِبُ عليه أنْ يَستعِدَّ لِلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِأنَّه بلَغَ سِنَّ الإنابةِ والرُّجوعِ، وتَرَقُّبِ المَوتِ، وهي مَظِنَّةُ انقِضاءِ الأجَلِ؛ فلا يَنبَغي له حينَئِذٍ إلَّا الاستِغفارُ ولُزومُ الطَّاعاتِ، والإقبالُ على الآخِرةِ. والعاقِلُ هو الذي يجِدُّ ويجتَهِدُ في عُمُرِه ليُرضِيَ اللهَ سُبحانَه ويزرعُ الخيرَ لنَفْسِه في الدُّنيا، ولا يُلهِيه الأمَلُ عن العَمَلِ حتى يباغِتَه الموتُ.

*﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ﴾ يقول الله تعالى: لَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونُوا هُمْ وَمَمَالِيكُهُمْ فِيمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ سَوَاءً، وَقَدْ جَعَلُوا عَبِيدِي شُرَكَائِي فِي مُلْكِي وَسُلْطَانِي. يُلْزِمُ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ.

قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَشْرِكُهُ مَمْلُوكُهُ فِي زَوْجَتِهِ وَفِرَاشِهِ وَمَالِهِ؟ أَفَتَعْدِلُونَ بِاللَّهِ خَلْقَهُ وَعِبَادَهُ؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ بالإشراك به.

نعمة بل آية الزواج والسكن إلى الزوجة، ونعمة الذرية: *﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

من نعم الله على الإنسان أن يطول عمرة فيرى أحفاده، كما قال سبحانه *﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:71]، أراد به والد الولد فبشرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها، فلما بشرت بالولد ضحكت سروراً فصكت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجبا.

من النعم الاجتماع بالأحفاد، والتفاوت في المعاش والرزق سنة اجتماعية لإقامة الحياة والتكامل.

---

1 - أخرجه أحمد (1585)، والبخاري (6390)، والنسائي (5445) بلفظه.
2 - أخرجه البخاري (4619)، من أفراد البخاري على مسلم.

ومن النعم خلق الأزواج من جنس النفس الإنسانية للأنس والمودة، خلق من آدم زوجه حواء، وقيل: من أنفسكم أي من جنسكم أزواجكم، وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار، فكان إعطاء البنين والحفدة لإدامة الذكر والقوة والمتاع.

ثم وبخهم الله وأنكر عليهم بعد أن بيّن لهم هذه النعم التي تشمل جميع أمرهم ومعاشهم: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

ثم كانت خاتمة المقطع واستنكار الشرك: *﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، لم يقل (يستطيع) لمكان (ما) وهو اسم يصلح للواحد والأثنين والجمع.

*﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: بعد عرض السلسلة العظيمة من النعم (الماء، الأنعام، النخيل، الأعناب، النحل، الخلق، الأزواج، البنون)، يرجع القرآن ليكشف حماقة الشرك: يعبدون من لا يملك رزقًا أصغر من الذرة!

*﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: نهي حاسم عن تشبيه الخالق بالمخلوق أو قياس الشركاء العاجزين بالرب القادر، فالله جل جلاله لا ند له ولا شريك، يعلم بواطن الأمور وظواهرها وأنتم تسبحون في جهلكم.

(ضرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(79) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (85) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ(89))

تتجلّى في هذه الآيات الكريمات من هذا الدرس من سورة النحل (سورة النِعَم) ملاحمُ البيان القرآني؛ حيث يُساق الدليل العقلي والشهود الوجداني لإبطال الشرك، وتُعرَض نِعَم الله الظاهرة والباطنة، لتنتهي ببيان المشهد الأخروي والحُجّة القاطعة.

ضربُ المثل الأول (العبد المملوك والمُنزَع المالك): *﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هذا مثل الكافر، رزقه الله مالاً، فلم يقدم فيه خيراً، ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ﴾ هذا مثل المؤمن أعطاه الله مالاً فعمل فيه بطاعة الله، وأنفقه في رضاه سرّاً وجهراً فأثابه الله عليه الجنة، ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ﴾ لم يقل (يستويان) لمكان (من) وهو اسم يصلح للواحد والأثنين والجمع.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يَقُولُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، مَا لِلْأَوْثَانِ عِنْدَهُمْ مِنْ يَدٍ وَلَا مَعْرُوفٍ فَتُحْمَدُ عَلَيْهِ، إِنَّمَا الْحَمْدُ الْكَامِلُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ الْمُنْعِمُ وَالْخَالِقُ وَالرَّازِقُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْكُفَّارِ لَا يَعْلَمُونَ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {عَبْدًا مَمْلُوكًا} أَيْ: أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ {وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا} أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [1].

التقابُل والتقاسُم الصريح بين حالتَين: عَبْدٌ مَمْلُوكٌ عَاجِزٌ. (الوصف بـ "مَمْلُوكًا" بعد "عَبْدًا" لرفع احتمال العبد الحرّ أو المكاتَب)، يقابله حُرٌّ مُنْعَمٌ عَلَيْهِ بالتوسعة، فاعلٌ لخيرات الإنفاق سِرًّا وَجَهْرًا، أي: كذلك لا يستوي الكافر العاصي والمؤمن المطيع.

وقيل: الاستفهام الإنكاري ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ يُلْزِم العقل فورًا بالنفي. والمقصود القياسي (قياس الشبه والتمثيل): إذا كنتم لا تُسوّون بين عبيدكم العاجزين وأحراركم المتصدقين، فكيف تُسوّون بين الأصنام العاجزة والربّ الرزاق المنعم المعطي الصمد سبحانه؟!

يذكر ابن القيم أن هذا المثل يضرب للآلهة الباطلة التي لا تملك نفعًا ولا ضرًا ولا رزقًا، ولله العليّ القدير المبسوط اليدين بالنعم.

ضربُ المثل الثاني (الأبكم العاجز والآمر بالعدل): *﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هذا مثل الأصنام، لا تسمع، ولا تنطع، ولا تعقل، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ﴾ مولاه هنا أي عابده، يحتاج الصنم لعابده أن يحمله ويضعه ويخدمه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ﴾ يعني الله تعالى قادر متكلم يأمر بالتوحيد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قيل: الله يدلكم على صراط

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص657).

مستقيم، وقيل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأمر بالعدل وهو على سراط مستقيم، وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر، يرويه عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

ترتقي الصورة المثلية من عجز الملكية في الآية السابقة إلى عجز الذات والتواصل في هذه الآية.

*﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال البغوي – رحمه الله -: نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء، وقال ابن سعدي -رحمه الله -: أي: هو الله المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلاّ هو، ومن ذلك علم الساعة؛ فلا يدري أحد متى تأتي إلاّ الله، فإذا جاءت وتجلت؛ لم تكن *﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ من ذلك، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليست للشَك، بل لإضراب إبطالي في التشبيه؛ أي: بل هو أقرب من لمح البصر في قياس السرعة الإلهية التي لا تخضع لقوانين البشر.

فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال [2].

نعمةُ الخروج من بطون الأمهات والتجهيز بالاستعدادات: *﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، ثم ابتدأ فقال جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ﴾، لأنّ الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات، وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله.

كل مولود يولد بهذه الصفة: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ للتعبير عن العجز المعرفي المطلق لحظة الولادة.

لكنه يولد بالفطرة والاستعدادات التي وهبها الله إياه قبل الولادة، وفي تقديم السمع على الأبصار لأن السمع أداة التلقي الأولى للجنين والطفل، وثني الأفئدة (العقول والقلوب) لأنها أداة الإدراك والتكليف.

يوضح ابن تيمية – رحمه الله - أنّ النعم المدركة بالآلات (السمع، البصر، الفؤاد) هي أدوات تحصيل العلم الإيماني والدنيوي، وترك استخدامها في الحق إهدار لمقصود إيجادها.

---

1 - انظر الصدر السابق.

2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (657)، ابن سعدي: تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن) (422).

كما يشير محمد قطب – رحمه الله - إلى البعد التربوي والنفسي؛ حيث تتولى الفطرة التعلم عبر أدوات الإدراك، وغايتها النهائية هي الشكر التوحيدي لله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه [1].

نعمة الطير والتسخير الجوي: *﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

رسم مشهد حيّ جمالي حركي يُرى بالعين، كلمة ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ تدل على تذليل الجاذبية والهواء لها، و﴿جَوِّ السَّمَاءِ﴾ إشارة للفضاء الخالي الذي لا سند فيه سوى أسباب سخرها الله وقدرته.

الربط بين إمساك الطير في الهواء بدون دعائم وبين إمساك الكون كله، فتتحول النظرة البسيطة للطائر إلى نافذة إيمانية لمَن يُعمل عقله.

نعمة بل آية السكن والاستقرار والظعن: *﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾

إشراقة بلاغية: تقسيم البيوت إلى نوعين للتعبير عن استغراق النعمة لحالتي الإنسان:

بيوت الثابتة (سَكَنًا) لحال الإقامة، وبيوت متنقلة بيوت الجلد والخيام (تَسْتَخِفُّونَهَا) لحال الظَعْن (الترحال).

الدقة اللغوية في الدفء واللباس: تخصيص الأصواف والغنم، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز، بدقة لسانية عجيبة، مع إبراز وظيفتها الكبرى: ﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

نعمة الظلال والأكنان والسرابيل: *﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾

﴿ظِلَالًا﴾: الوقاية من حر الشمس أثناء الحركة، ﴿أَكْنَانًا﴾: المغارات والكهوف في الجبال للحماية واللجوء.

﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾: الثياب الناعمة والقمصان، قال أهل المعاني: أراد الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾: الدروع والدروع الزردية في الحروب.

---

1 - أخرجه البخاري (1385) مطولاً، ومسلم (2658) مطولاً باختلاف يسير

ذكر ذلك خاصة اكتفاء بذكر أحدهما من ذكر الآخر، إذ كان معلومًا عند المخاطبين به معناه، وأن السرابيل التي تقي الحرّ تقي أيضًا البرد وقالوا: ذلك موجود في كلام العرب مستعمل، واستشهدوا لقولهم بقول الشاعر:

وَمـــا أدْرِي إذا يَمَّمْـتُ وَجْهًـا. . .أُرِيـــدُ الخَـيْرَ أيُّهُمـــا يَلِينِـــي

فقال: أيهما يليني: يريد الخير أو الشرّ، وإنما ذكر الخير لأنه إذا أراد الخير فهو يتقي الشرّ.

وقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: إِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِمْ، فَقَالَ: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا، وَمَا جَعَلَ [لَهُمْ] مِنَ السُّهُولِ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ جِبَالٍ كَمَا قَالَ: "وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا" لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ وَبَرٍ، وَشَعْرٍ، وَكَمَا قَالَ: "وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ" (النُّور-43) وَمَا أَنْزَلَ مِنَ الثَّلْجِ أَكْثَرُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الثَّلْجَ. وَقَالَ: "تَقِيكُمُ الْحَرَّ" وَمَا تَقِي مِنَ الْبَرْدِ أَكْثَرُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ حَرٍّ[1].

ثم كان ختام الآية البديع: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾: إظهار للعلة الكبرى من النِعَم؛ فالنِعَم ليست للترف الحيواني، بل هي أدوات استدلال واكتفاء تقود لمقام التسليم والإسلام لله.

ورغم هذا كانت مقابلة الإنسان للنعم هي التولي وإنكار النعمة: *﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

إشراقة براغية: بعصر وقصر مهمته ﷺ ببيان حدوده الرسالية ﴿فإنما عليك الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾).

*﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾: التضاد النفسي العجيب في ﴿يَعْرِفُونَ ... ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: فالإنكار ليس عن جهل بل عن جحود وعناد استكباراً.

ينوه ابن تيمية – رحمه الله - إلى أنّ الشرك أصله الجحود مع العلم، فهم ينسبون النعم لغير الله (كأن يقولوا: لولا فلان لم يكن كذا، أو بفضل آلهتنا)، وهذا إنكار عملي ولغوي للإنعام الإلهي.

مشاهد القيامة والتخلّي الكلي: *﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

التدرج المشهدي: إفحام وتكميم: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي الِاعْتِذَارِ، وَقِيلَ: فِي الْكَلَامِ أَصْلًا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُسْتَرْضَوْنَ، يَعْنِي: لَا يُكَلَّفُونَ أَنْ يُرْضُوا رَبَّهُمْ، لِأَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدَارِ تَكْلِيفٍ، وَلَا يُرْجَعُونَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَتُوبُونَ. وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَى فِي

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص658).

الِاسْتِعْتَابِ: أَنَّهُ التَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضَا، وَهَذَا الْبَابُ مُنْسَدٌّ فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ انقطاع فرصة الاعتذار والتوبة [1].

ثم مباغتة العذاب: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

ثم تبرؤ الشركاء: المشركون يشيرون إلى آلهتهم ﴿هوإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الذين كنا ندعوا من دونك﴾، فتفاجئهم الآلهة بالرد الصارم والتكذيب: ﴿فالقوا إليهم القول إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم لا يكون إلى استسلام ذليل: *﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾، بعد الاستكبار في الدنيا، واستسلامٌ مطلق لا نفع فيه، مع تلاشي واضمحلال افتراءاتهم القديمة ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

العذاب المركب للمضلين: *﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

جزاء وفاقًا: عذابٌ على كفرهم الذاتي، وعذابٌ إضافي زائد على صدهم الناس عن الإيمان، وعلى إفسادهم.

إشراقة بلاغية: ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ يدل على التضاعف والشدة والتنوع في العقاب.

ثم كان مسك الختام والشهادة العظمى والقرآن الشامل: *﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي نَبِيُّهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانَتْ تُبْعَثُ إِلَى الْأُمَمِ مِنْهَا.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الَّذِينَ بُعِثْتَ إِلَيْهِمْ، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ بَيَانًا، ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى﴾ بِشَارَةً ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾

البلاغة والتخصيص الأسلوبي: تنوع وتخصيص في الشهادة: كل نبي يشهد على أمته من جنسهم ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، والذروة العظمى هي استدعاء خاتم الأنبياء ﷺ للشهادة على الجميع ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اقرَأ عليَّ، قُلتُ: آقرَأُ عليك وعليك أُنزِلَ؟ قال: فإنِّي أُحِبُّ أن أسمَعَه مِن غَيري، فقَرَأتُ

1 - المصدر السابق.

عليه سورةَ النِّساءِ، حتَّى بَلَغتُ: {فكَيفَ إذا جِئنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وجِئنا بِك على هؤلاء شَهيدًا}]النساء: 41 [، قال: أمسِكْ، فإذا عَيناه تَذرِفان[1].

ثم أربع خصائص للكتاب العزيز: ﴿وأنزلنا عليك الكتاب تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: استيعاب كليات الدين وهداياته.

﴿وَهُدًى﴾: إخراج من الظلمات إلى النور، ﴿وَرَحْمَةً﴾: نيل لخيري الدنيا والآخرة.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾: طمأنة وتثبيت للمؤمنين المنقادين.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(93) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ(102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (103) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(110))

1 - أخرجه البخاري (4582) وهذا لفظه، ومسلم (800) باختلاف يسير.

تُشكّل هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة النحل المنهج الأخلاقي والتشريعي والسلوكي للأمة، وتصل بين الأصول الأخلاقية والتكليف الشريعي ورباط العقيدة، وتُمثّل جوهر مقاصد "سورة النحل" التي تُسمّى سورة النعم؛ إذ أعظم النعم هي نعمة الهداية والمنهج القويم.

*﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةُ، وَقَالَ أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ عَلَى الْوَلِيدِ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي أعد فعاد عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ لَهُ وَاللَّهِ لَحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وما هو بقول البشر[1].

جاء التراكيب بمقابلة ثلاثية ثنائية: ثلاثة أوامر متدرجة من الواجب إلى الفضل إلى الخصوص (العدل ← الإحسان ← إيتاء ذي القربى)، تقابلها ثلاثة نواهي متدرجة في الشناعة والضرر الاجتماعي (الفحشاء ← المنكر ← البغي).

فـالعدل: هو الاستقامة وإعطاء كل ذي حق حقه، والإحسان: تجاوز العدل إلى الفضل والمسامحة، كما في حديث جبريل: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [2].

إيتاء ذي القربى: نصّ عليه خصوصًا للتأكيد على صلة الرحم كأصل للتماسك الاجتماعي.

الفحشاء: ما عظم قبحه من الذنوب كالزنا، والمنكر: ما تنكره العقول والشرائع.

والبغي: الكبر والتعدي على الناس.

يرى الطاهر بن عاشور – رحمه الله – أنّ هذه الآية قانون أخلاقي اجتماعي عام، يُعدّ شريعة الشريعة. ويُشير سيد قطب – رحمه الله - إلى أنّ "العدل" قاعدة المجتمع، و"الإحسان" بلسم الجراح، و"إيتاء ذي القربى" حماية للخلية الأولى (الأسرية).

*﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

إشراقة بلاغية: انتقال من القواعد الأخلاقية العامة إلى تطبيقها العملي الأبرز وهو "الوفاء بالعهود".

---

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص660)، وسيرة ابن هشام (ج1/ص270).
2 - أخرجه البخاري (50) وهذا لفظه، ومسلم (9) باختلاف يسير.

كما أنّ قوله سبحانه ﴿جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ فيه تعظيم لشناعة النكث، لأن الكفيل هو الضامن، فكيف يُستهان بضمانة الله؟

النظرة اللغوية: "توكيدها" تشديدها وتغليظها باسم الله. "العهد" يشمل كل ما عقد الإنسان على نفسه مع الله أو مع خلقه.

يُلفت ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - النظر إلى أن الوفاء بالعهود أساس الثقة في المعاملات الإنسانية وركيزة الإيمان، وأن الاستهانة بالأيمان إشعار بضعف تعظيم الله في القلب.

*﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾

البيان والتمثيل البلاغي: صورة بيانية تمثيلية تُجسّد حالة نكث العهد بصورة امرأة خرقاء تسهر وتتعب في غزل الصوف، حتى إذا أحكمته وغزلته قويًا نقضته ونكثته طاقات متفرقة (أنكاثًا).

"دخلاً": أي مكرًا وغشًا وتدليسًا، *﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ أي لمجرد أن طائفة أو جماعة هي أكثر أو أقوى أو أكثر مالاً، فتغدرون بالضعيف لتنضموا للقوي.

يُنبه البقاعي – رحمه الله - إلى تناسب الصورة مع العقل العربي الحسي لتقبيح الغدر. ويرى سيد قطب ومحمد قطب – رحمهما الله - في هذه الآية تحذيرًا للأمة من البراغماتية الأخلاقية والانتهازية السياسية التي تنكث العهود من أجل المصلحة المادية والمكاسب العابرة.

*﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الآية تقرر المشيئة الإلهية وتدفع توهم جبر الفطرة. التنوع البشري سنة، واختلاف العقول والاختيار مجال الابتلاء والمسؤولية الفردية.

تأكيد مبدأ الحرية والاختيار يتبعهما التكليف والمسؤولية ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

*﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

إشراقة بلاغية: التكرار للتحذير من اتخاذ الأيمان دخلاً ومكرًا للتهويل والتوكيد. واستعارة ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ تصوير حسي بديع للانحراف والسقوط الإيماني بعد الاستقامة، فالغدر يؤدي للانتكاس.

يوضح ابن القيم – رحمه الله - كيف أنّ صدّ الناس عن الدين قد يكون بالأسوة السيئة؛ فعندما يرى الكافر أو الضعيف المؤمن يغدر وينكث العهد، يصده ذلك عن إتباع الحق، فيتحمل الناكث إثم نفسه وإثم من صده.

*﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

يَعْنِي لَا تَنْقُضُوا عُهُودَكُمْ، تَطْلُبُونَ بِنَقْضِهَا عَرَضًا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ أَوْفَوْا بِهَا. ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ﴾ مِنَ الثَّوَابِ لَكُمْ عَلَى الْوَفَاءِ، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فَضْلُ مَا بَيْنَ الْعِوَضَيْنِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ] . فَقَالَ:

*﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

المقابلة الحادة والمفاصلة بين الفاني والباقي: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ في مقابل ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾. وصف الدنيا ومتاعها كائناً ما كان بأنه "ثمن قليل" بالمقارنة مع ثواب الله.

يعلق ابن تيمية على هذه الآية بأن الزهد الحقيقي ليس بترك المال بل بعدم تعلقه بالقلب، وأن إيثار الباقي على الفاني هو جوهر العقل والإيمان. والصبر المذكور هنا هو الصبر على الوفاء بالعهود ومقاومة مغريات الغدر.

*﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قانون قرآني جامع وشامل. تنكير ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ لإفادة التعظيم والشمول. والربط الإنشائي بين العمل الصالح والإيمان (فالعمل بلا إيمان هباء، والإيمان بلا عمل مدّعى).

المساواة المطلقة بين الذكر والأنثى في الجزاء والمسؤولية: الحياة الطيبة: ليست بالضرورة كثرة المال، بل هي انشراح الصدر، القناعة، الطمأنينة، الأنس بالله، والسلام الداخلي الذي يعلو فوق تقلبات الظروف المادية.

عن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه قال: عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمرَه كُلَّه خَيرٌ، وليسَ ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ، إن أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَرَ فكانَ خَيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكانَ خَيرًا له [1].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا...﴾

1 - مسلم (2999) من أفراد مسلم على البخاري.

إشراقة بلاغية: مناسبة الاستعاذة هنا: القراءة فتح لأبواب الهداية، والشيطان يحرص على الوسوسة والتشكيك عند الإقبال على القرآن ليصرف القلب عن تدبره.

البُعد الأسلوبي والبياني: حصر سلطان الشيطان على فريق واحد: ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، فنفي سلطانه على المؤمنين المتوكلين مطلق وقاطع. الشيطان لا يملك قوة قاهرة، بل يستدرج من يتولاه باختياره.

ففي الآية تحذير من التساهل في تولي الشيطان وحزبه، فإنّ من يتولى الشياطين والجن إنما يضر نفسه وربما أضر من حوله إذا قصروا في التوكل على الله.

*﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ﴾ يعني: إذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكام، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي: قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، {مُفْتَرٍ} مُخْتَلِقٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَسْخَرُ بِأَصْحَابِهِ، يَأْمُرُهُمُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ، وَيَنْهَاهُمْ عنه غدا، مَا هُوَ إِلَّا مُفْتَرٍ، يَتَقَوَّلُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون حَقِيقَةَ الْقُرْآنِ، وَبَيَانَ النَّاسِخِ مِنَ الْمَنْسُوخِ، ومن أسباب النسخ التدرج في نزول الأحكام حتى يسهل على الناس الأمتثال.

عن عائشة رضي الله عنها: إنَّما نَزَلَ أوَّلَ ما نَزَلَ منه سورةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فيها ذِكرُ الجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذا ثابَ النَّاسُ إلى الإسلامِ نَزَلَ الحَلالُ والحَرامُ، ولو نَزَلَ أوَّلَ شَيءٍ: لا تَشرَبوا الخَمرَ، لَقالوا: لا نَدَعُ الخَمرَ أبَدًا، ولو نَزَلَ: لا تَزنوا، لَقالوا: لا نَدَعُ الزِّنا أبَدًا، لقد نَزَلَ بمَكَّةَ على مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإنِّي لَجاريةٌ ألعَبُ: {بَلِ السَّاعةُ مَوعِدُهم والسَّاعةُ أدهى وأمَرُّ} [القمر: 46]، وما نَزَلَت سورةُ البَقَرةِ والنِّساءِ إلَّا وأنا عِندَه، قال الراوي عن عائشة: فأخرَجَت له المُصحَفَ، فأملَت عليه آيَ السُّورِ[1]..

*﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

السياق والرد البياني: الشبهة الكافرة حول النسخ والتدرج التشريعي واتهام النبي ﷺ بالافتراء.

---

1 - أخرجه البخاري (4993) وعبد الرزاق (5943)، والمستغفري في ((فضائل القرآن)) (426) واللفظ لهما، والنسائي في ((الكبرى)) (11494) بنحوه..

الرد الأسلوبي: إسناد التنزيل إلى ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ (جبريل عليه السلام) لنسبة المصدرية والنزاهة، والتأكيد على حكمته: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والتدرج بما يصلح أحوالهم، كما جاء في حديث عائشة السابق رضي الله عنها.

*﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ...﴾

البلاغة والحجة اللسانية: دحض وإفحام عقلي ولساني حاسم لمفتريات المشركين (الذين زعموا أن النبي ﷺ يتعلم من غلام أعجمي كان قيناً أي عبداً مكة، وروى أن الغلام الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه).

المقابلة بين "أعجمي" (غير مبين/لا يفصح) و"عربي مبين" (في أعلى درجات الفصاحة والإبانة). كيف لغلام أعجمي أن ينتج هذا الإعجاز البياني واللساني العظيم؟

ففي ذلك إثبات أن هذا القرآن وحي إلهي لا يصدر عن بشر، وأن شبهات أهل الباطل تتهافت أمام أدنى نظر عقلاني ولساني.

*﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾

البلاغة والسياق التشريعي: استثناء النطق بكلمة الكفر تحت الإكراه والتعذيب (كما حدث مع عمار بن ياسر) بشرط طمأنينة القلب.

الشرط: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾: كناية عن رسوخ الإيمان وعدم تزعزعه باللسان المكره.

﴿ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾: انشراح الصدر للكفر وانشراحه واختياره عن طواعية.

التشخيص الدقيق لسبب الكفر والارتداد المختار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، فالسبب ليس شبهة عقلية بل إيثار الشهوة العاجلة والمنفعة المادية، مما يؤدي بالطبع والختم الإلهي على المنافذ الروحية (القلب، السمع، البصر).

قال البغوي رحمه الله: «وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى: أَنْ مَنْ أُكْرِهَ عَلَى كَلِمَةِ الْكُفْرِ، يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقُولَ بِلِسَانِهِ، وَإِذَا قَالَ بِلِسَانِهِ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ لَا يَكُونُ كُفْرًا، وَإِنْ أَبَى أَنْ يَقُولَ حَتَّى يُقْتَلَ كَانَ أَفْضَلَ.

قال: وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي طَلَاقِ الْمُكْرَهِ. فَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنَّهُ لَا يَقَعُ، وذهب أكثرهم إلاّ أنه لا يقع.

وفي موقع الإسلام سؤال وجواب: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ذهب جمهور العلماء إلى أن طلاق المكره لا يقع، واستدلوا بما رواه ابن ماجه (2043) عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) صححه الألباني في "صحيح ابن ماجة."

وروى البيهقي في "السنن الكبرى" (15499) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " لَيْسَ لِمُكْرَهٍ طَلَاقٌ " وصححه ابن القيم في "أعلام الموقعين.(3/38) "

وجاء في "الموسوعة الفقهية: (18-17 /29) ". "وقد ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إلَى عَدَمِ وُقُوعِ طَلَاقِ الْمُكْرَهِ إذَا كَانَ الإِْكْرَاهُ شَدِيدًا، كَالْقَتْلِ، وَالْقَطْعِ، وَالضَّرْبِ الْمُبَرِّحِ، وَمَا إلَى ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِحَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لاَ طَلاَقَ وَلاَ عَتَاقَ فِي إِغْلاَقٍ) وَلِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) وَلأَِنَّهُ مُنْعَدِمُ الإِْرَادَةِ وَالْقَصْدِ، فَكَانَ كَالْمَجْنُونِ وَالنَّائِمِ، فَإِذَا كَانَ الإِْكْرَاهُ ضَعِيفًا، أَوْ ثَبَتَ عَدَمُ تَأَثُّرِ الْمُكْرَهِ بِهِ، وَقَعَ طَلاَقُهُ لِوُجُودِ الاِخْتِيَارِ" انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وَلَا يَقَعُ طَلَاقُ الْمُكْرَهِ، وَالْإِكْرَاهُ يَحْصُلُ إمَّا بِالتَّهْدِيدِ أَوْ بِأَنْ يَغْلِبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ يَضُرُّهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ بِلَا تَهْدِيدٍ ..." انتهى من "الاختيارات" (ص 366).

وقال ابن جزي في "القوانين الفقهية" (ص 151) "وأما من أكره على الطلاق بضرب أو سجن أو تخويف فإنه لا يلزمه عند الإمامين وابن حنبل ، خلافا لأبي حنيفة" انتهى. يقصد بالإمامين مالك والشافعي.

ثانيا: وقد بَيَّن العلماء شروط الإكراه الذي لا يقع معه الطلاق، وفي الأقوال المنقولة آنفا شيء من هذه الشروط ، وأن الإكراه الضعيف لا يعد إكراها، ولا يمنع من وقوع الطلاق.

قال ابن قدامة في "المغني:(10/351) ": "وَمِنْ شَرْطِ الْإِكْرَاهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ قَادِرٍ بِسُلْطَانٍ أَوْ تَغَلُّبٍ، كَاللِّصِّ وَنَحْوِهِ...

الثَّانِي: أَنْ يَغْلِبَ عَلَى ظَنِّهِ نُزُولُ الْوَعِيدِ بِهِ، إنْ لَمْ يُجِبْهُ إلَى مَا طَلَبَهُ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَسْتَضِرُّ بِهِ ضَرَرًا كَثِيرًا، كَالْقَتْلِ، وَالضَّرْبِ الشَّدِيدِ، وَالْقَيْدِ ، وَالْحَبْسِ الطَّوِيلِ ، فَأَمَّا الشَّتْمُ ، وَالسَّبُّ ، فَلَيْسَ بِإِكْرَاهٍ، رِوَايَةً وَاحِدَةً، وَكَذَلِكَ أَخْذُ الْمَالِ الْيَسِيرِ" انتهى.

وبناء على هذا، فالذي يظهر أن إشاعة ما ذكرته (سرعة القذف) لا يعد فضيحة ولا إكراها، فهذا أمر يصيب الكثير من الناس، ولا يعده الناس فضيحة ، ولا شيئا يلام عليه الرجل، بل هو كالأمراض التي تصيب الإنسان ولا يكون هو المتسبب فيها.

وعلى هذا، فالطلقة التي أوقعتها على زوجتك واقعة ومحسوبة من مرات الطلاق، وبهذا تكون طلقتها طلقتين، وبقيت لك الثالثة. والله أعلم

*﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قال البغوي رحمه الله: نَزَلَتْ فِي عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، أَخِي أَبِي جَهْلٍ مِنَ الرَّضَاعَةِ، وَفِي أَبِي جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْوَلِيدِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَسَلَمَةَ بْنِ هِشَامٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُسَيْدٍ الثَّقَفِيِّ، فَتَنَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَأَعْطَوْهُمْ بَعْضَ مَا أَرَادُوا لِيَسْلَمُوا مِنْ شَرِّهِمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ هَاجَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَجَاهَدُوا.

وَقَالَ الْحَسَنُ وَعِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، وَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ، فَلَحِقَ بِالْكُفَّارِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَاسْتَجَارَهُ لَهُ عُثْمَانُ، وَكَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَأَجَارَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ [1].

البلاغة والتختيم: ختم المقاطع بالبشرى والرحمة بعد التحذير والوعيد. ترتيب المدارج الإيمانية والعملية:

تأكيد باب التوبة والمغفرة؛ فمن فُتن أو ضعف ثم استدرك بالهجرة والجهاد والصبر، فإن الله يغفر له ويرحمه، لتكتمل لوحة الآيات بالنعم العظمى وهي المغفرة والرحمة والسلام.

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير الغوي (معالم التنزيل) (ص665).

ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (119) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ(128))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة النحل هي مسك ختام السورة المسماة بسورة "النِّعَم"؛ وهي خاتمةٌ بليغة تتسق اتساقاً مدهشاً مع محور السورة القائم على التذكير بالنِّعم، والدعوة إلى شكرها، والتحذير من كفرانها، مع إقامة معالم الملة الحنيفية والمقاصد الدعوية والإنسانية.

*﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

تقع هذه الآية بعد التحذير من فتن الدنيا والفتنة في الدين. فيأتي الظرف ﴿يَوْمَ﴾ متعلقاً بمحذوف تقديره "اذكر"، أو بما سبقه، لينقل الذهن من مشهد الدنيا إلى المشهد الأكبر يوم القيامة، حيث تتجرد النفوس عن كل ناشر ومُعين.

إشراقة بلاغية: التكرار واستغراق العموم: تكرار لفظ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مرتين يُعطي شعوراً بالانفراد التام؛ فلا أنساب، ولا أحزاب، ولا أتباع، بل مفاصلة فردية مطلقة.

التعبير بـ *﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا}: صورة مجسّمة للموقف؛ فالنفس في حالة دفاع مستميت ولهث للبحث عن مخرج، لا تشغلها إلا ذاتها.

ثمّ ختمت الآية بـ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، إظهاراً وتأكيداً للعدل الإلهي المطلق بعد بيان توفية الأعمال؛ فالجزاء ميزان دقيق لا بخس فيه.

ذكر البغوي هنا ما روي أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: والذي نفسي بيده إن لجهنم يوم القيامة زفرة ما من مقرب ولا نبي مرسل إلا يخر لركبته حتى إن إبراهيم خليل الرحمن يقول رب نفسي حتى لو كان لك عمل سبعين نبيا إلى عملك لظننت أنك لم تنج[1].

وهو قريب من حديث الشفاعة الكبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في دَعوةٍ، فرُفِعَ إليه الذِّراعُ -وكانَت تُعجِبُه- فنَهَسَ منها نَهسةً. وقال: أنا سَيِّدُ القَومِ يَومَ القيامةِ، هل تَدرونَ بمَ؟ يَجمَعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ، فيُبصِرُهمُ النَّاظِرُ ويُسمِعُهمُ الدَّاعي، وتَدنو منهمُ الشَّمسُ، فيَقولُ بَعضُ النَّاسِ: ألا تَرَونَ إلى ما أنتُم فيه إلى ما بَلَغَكُم؟ ألا تَنظُرونَ إلى مَن يَشفَعُ لَكُم إلى رَبِّكُم؟ فيَقولُ بَعضُ النَّاسِ: أبوكُم آدَمُ، فيَأتونَه فيَقولونَ: يا آدَمُ، أنتَ أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بيَدِه، ونَفَخَ فيكَ مِن روحِه، وأمَرَ المَلائِكةَ فسَجَدوا لَكَ، وأسكَنَكَ الجَنَّةَ، ألا تَشفَعُ لَنا إلى رَبِّكَ؟ ألا تَرى ما نَحنُ فيه وما بَلَغَنا؟ فيَقولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَم يَغضَبْ قَبلَه مِثلَه، ولا يَغضَبُ بَعدَه مِثلَه، ونَهاني عَنِ الشَّجَرةِ فعَصَيتُه، نَفسي نَفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى نوحٍ، فيَأتونَ نوحًا، فيَقولونَ: يا نوحُ، أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ، وسَمَّاكَ اللهُ عَبدًا شَكورًا، أما تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ ألا تَرى إلى ما بَلَغَنا؟ ألا تَشفَعُ لَنا إلى رَبِّكَ؟ فيَقولُ: رَبِّي غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يَغضَبْ قَبلَه مِثلَه، ولا يَغضَبُ بَعدَه مِثلَه، نَفسي نَفسي، ائتوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَأتوني فأسجُدُ تَحتَ العَرشِ، فيُقالُ: يا مُحَمَّدُ، ارفَعْ رَأسَكَ، واشفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعطَه. قال مُحَمَّدُ بنُ عُبَيدٍ: لا أحفَظُ سائِرَه[2].

*﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

يَعْنِي: مَكَّةَ، كَانَتْ آمِنَةً، لَا يُهَاجُ أَهْلُهَا وَلَا يُغَارُ عَلَيْهَا، ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ قَارَّةً بِأَهْلِهَا، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى الِانْتِقَالِ لِلِانْتِجَاعِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ سَائِرُ الْعَرَبِ، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يُحْمَلُ إِلَيْهَا مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ نَظِيرُهُ: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الْقَصَصِ:57]،

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ جَمْعُ النِّعْمَةِ، وَقِيلَ: جَمْعُ نَعْمَاءَ مِثْلِ بَأْسَاءَ وَأَبْؤُسٍ، ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِالْجُوعِ سَبْعَ سِنِينَ، وَقَطَعَتِ الْعَرَبُ عَنْهُمُ الْمِيرَةَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى جَهِدُوا فَأَكَلُوا الْعِظَامَ الْمُحَرَّقَةَ، وَالْجِيَفَ، وَالْكِلَابَ

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص665)، وابن ابي الدنيا: صفة الجنة (ص36) والطبراني: المعجم الكبير (ج9ص417).

2 - أخرجه البخاري (3340) هكذا مختصرا و(4712)، وافقت رواية مسلم (194) وغيره أطول ذكر فيه اعتذار إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام كذلك.

الْمَيِّتَةَ، وَالْعِهْنَ، وَهُوَ الْوَبَرُ يُعَالَجُ بِالدَّمِ، حَتَّى كَانَ أَحَدُهُمْ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى شِبْهَ الدُّخَانِ مِنَ الْجُوعِ، وهذه مجرد ذائقة،

إشراقة بلاغية: فإنّ لكلمة (فأذاقها) ظلالها، ففيها التعريض والتهديد بعذاب الآخرة.

ثُمَّ إِنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ كَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: هَذَا عَادَيْتَ الرِّجَالَ، فَمَا بَالُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلنَّاسِ بِحَمْلِ الطَّعَامِ إِلَيْهِمْ وَهُمْ بَعْدُ مُشْرِكُونَ. وَذَكَرَ اللِّبَاسَ لِأَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهُزَالِ وَالشُّحُوبِ وَتَغَيُّرِ ظَاهِرِهِمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ كَاللِّبَاسِ لَهُمْ ﴿وَالْخَوْفِ﴾ يَعْنِي: بُعُوثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَرَايَاهُ الَّتِي كَانَتْ تُطِيفُ بِهِمْ. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [1].

النظرة التفسيرية والسياقية: هذا المثل هو النموذج التطبيقي الحسي لقانون "كفران النعم". (قال ابن عاشور: المثل هنا قد يكون لقرية معينة كـ مكة، أو مثلاً ضربه الله كلياً لكل مجتمع يتنعم بالنعمة ثم يجحدها).

التدرج في وصف النعمة: بدأ بـ ﴿آمِنَةً﴾ (أمن نفسي/خارجي)، ثم ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ (استقرار لا اضطراب فيه ولا توقع لزوال النعمة)، ثم ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ (سعة وسهولة)، ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ (سعة المصادر).

وهنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾: جمع بين الذوق واللباس!

اللباس: دلالة على الإحاطة والشمول والالتصاق؛ فالجوع والخوف غطيا أجسامهم وأيامهم كاللباس الملتصق بالجلد.

السببية: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ردّ للعلة إلى أفعالهم المستمرة (التعبير بالجملة الاسمية الفعلية صيغة الماضي الاستمراري: "كانوا يصنعون").

وفي حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ولا أحَدَ أحَبُّ إليه العُذرُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك بَعَثَ المُبَشِّرينَ والمُنذِرينَ [2].

*﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ والرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص666).

2 - أخرجه البخاري (7416)، ومسلم (1499)، وأحمد (18168)، وأبو عوانة (5157) واللفظ لهم.

افتتحت الآية بـ ﴿وَلَقَدْ﴾ لتثبيت وقوع الخبر وحتميته، ثم كانت عاطفة القرب والإنكار: ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾؛ تنبيه على تمكّن الحجة عليهم، فهو ليس غريباً ولا مجهولاً، بل يعرفون أمانته وصدقه، فكان التكذيب قبيحاً وبشعاً.

الفاء العاطفة: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ﴾: التعقيب السريع بالفاء يدل على الاستحقاق والمبادرة بالعقوبة عند انتهاك حرمة التوحيد وتكذيب الرسالة.

الجملة الحالية: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ترفع أي شبهة لظلم وقع عليهم؛ فالعذاب نزل في تلبسهم بالظلم.

*﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، الفاء الرابطة والتفريع: الفاء تفريعية؛ أي إذا كان هذا شأن من كفر بالنعم فاحذروا مسلكهم، وكلوا مما رزقكم الله.

إشراقة بلاغية: الجمع بين الشرطين: ﴿حَلَالًا﴾، (من حيث حكم الشرع كَسْباً وتناولاً)، و﴿طَيِّبًا﴾، (من حيث طهارة الذات ونفع النفس وعدم الضرر).

وإنما أحل الله الطيبات، كما في سورة الأعراف ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157].

الحصر بالتقديم: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ تقديم المفعول به ﴿إِيَّاهُ﴾ يفيد القصر والحصر، أي: إن كنتم تفركونه بالعبادة ولا تشركون به شيئاً، فإن مقتضى هذه العبادة هو شكر المُنعم وحده.

*﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إشراقة بلاغية: أداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾: جاءت لتحديد المحرمات الأصلية ورداً على تشريعات الجاهلية وتحريمهم ما لم يحرّمه الله (كالسبائب والبحائر).

ثم كانت دقّة التعبير اللغوي: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ الإهلال لغير الله هو رفع الصوت عند الذبح للأصنام، وركّزت الآية على العلة الروحية والعائدية العقدية للذبيحة.

الإهْلالُ عندَ المُسلمينَ في الحجّ يَكونُ بتَوْحيدِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وإخْلاصِ الدِّينِ له، والبُعدِ عنِ الشِّركِ، أمَّا المُشركونَ فَكانَ إهْلالُهم في الحجِّ بالشِّركِ.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان المُشرِكونَ يقولونَ: لَبَّيكَ لا شَريكَ لَكَ، قال: فيَقولُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ويلَكُم! قد قد، فيَقولونَ: إلَّا شَريكًا هو لَكَ، تَملِكُه وما مَلَكَ. يقولونَ هذا وهم يَطوفونَ بالبَيتِ[1].!

وقال جابرٌ رضي الله عنه: فأهلَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتوحيدِ: لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ، لبَّيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلكَ، لا شريكَ لكَ، وكانوا في الجاهليةِ يقولونَ: لبَّيكَ لا شريكَ لكَ، إلا شريكًا هو لكَ، تَملِكُه وما ملَكَ[2].!

ذكر ابن تيمية - رحمه الله - هنا قاعدة التيسير والتوازن: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: المنهج الإسلامي يراعي ضرورة حفظ النفس؛ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾،(غير طالب للحرام مع وجود الحلال) و﴿وَلَا عَادٍ﴾: (غير متجاوز للقدر الذي يسد الرمق).

التعليل باسمين كريمين: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لم يقل "فلا إثم عليه" هنا كما في البقرة، بل ختم بـ (غفور رحيم) لبيان أن هذا الترخيص صادر من مغفرته ورحمته بعباده.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

البلاغة والسر الأسلوبي (الزمخشري وابن عاشور):

إسناد الوصف للألسنة: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾: تعبير مجسّد لشدة كذبهم وممارستهم له، حتى أصبحت ألسنتهم تشكّل الموصوف ونفس الكذب، أي أنّ ألسنتهم تنطق بالافتراء بديهة دون تفكير.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يزال الرجلُ يصدقُ ويتحرى الصدقَ حتى يُكتبَ صديقًا ولا يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرى الكذبَ حتى يُكتبَ كذابًا[3].!

ثم إن هذا أسلوب قرآني فريد، مثل قوله تعالى عن ابن نوح (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [هود:46].

أي: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم؛ وذلك بسبب كفره، وكثير عمله غير الصالح، حتى أصبح هو المجسد لهذا العمل غير الصالح، فنهى الله أباه نوحاً أن يسأل الله أمرًا لا علم له به.

---

1 - أخرجه مسلم (1185)، من أفراد مسلم على البخاري.
2 - أخرجه مسلم (1218)، جزء من حديث جابر الطويل في حجة الوداع.
3 - أخرجه البخاري (6094)، ومسلم (2607) باختلاف يسير

والعرب تسمّي من كثر فسقه فاسقاً، ومن بان كفره وشاع كافراً، ومن اشتد حربه حرباً لأعدائه. والله أعلم.

وفي الآية التحذير العظيم من الجرأة على التشريع: حظر الابتداع في الدين وتحليل الحرام أو تحريم الحلال بغير علم؛ لأن ذلك افتراء على مقام الربوبية.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ وفي عنقي صليبٌ من ذَهبٍ. فقالَ يا عديُّ اطرح عنْكَ هذا الوثَنَ وسمعتُهُ يقرأُ في سورةِ براءةٌ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ أما إنَّهم لم يَكونوا يعبدونَهم ولَكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لَهم شيئًا استحلُّوهُ وإذا حرَّموا عليْهم شيئًا حرَّموه[1].!

ثم ختم سبحانه الآية بالحقيقة المطلقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ نفْيٌ للنجاح والظفر في الدنيا والآخرة.

*﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، هنا الإيجاز والإعجاز: جملة خبرية موجزة: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾، التقدير: ما يتمتعون به في الدنيا متاعٌ قليلٌ زائل.

وكل مكث في الدنيا إذا قورن بالآخرة فهو قليل لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ أَوَّلٌ وَلَيْسَ لَهُ آخِرٌ لِأَنَّهُ يَوْمٌ مَمْدُودٌ، وَلَوْ كَانَ لَهُ آخِرٌ لَكَانَ مُنْقَطِعًا.

فالعاقل من قارن بين متعة نفعها حقير وقصير، وعذاب صفته ﴿أَلِيمٌ﴾، ودائم في الآخرة؛ ليتبين حجم الخسارة في بيع الآخرة بالدنيا.

*﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هنا إحالة على ما ذُكر في سورة الأنعام *﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:146].

الرد الأسلوبي والبلاغي: تحريم الطيبات على اليهود لم يكن أصل التشريع للأمة، وإنما كان عقوبة وشِدّة عليهم بسبب بغيهم.

تقديم المفعول بـ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ للتأكيد على أن ضرر شؤم المعصية والعتوّ يعود بالوبال على ذات العاصي. نسأل الله العافية.

*﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

1 - أخرجه الترمذي (3095) وصحح الألباني إسناده في صحيح الترمذي.

معنى الجهالة – كما يبين ابن القيم ومحمد قطب رحمهما الله- أنّ كل من عصى الله فهو جاهل بقدر عظمته وعاقبة الذنب وقت ارتكابه، وليس المراد بها انتفاء العلم بالكراهة أو الحرمة بالكلية.

وفي هذا قوله تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) [الزمر:67]، وقوله تعالى: (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) [عبس:23].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ، ولا يَسرِقُ السَّارِقُ حينَ يَسرِقُ وهو مُؤمِنٌ[1].

التكرار الموحي لـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، ثم أعاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لربط القلوب برحمة الله ورعايته وتربيته الخاصة للتائبين، وتكرارها يبعث الأمل في النفوس ويفتح باب التوبة الطاهر.

وأضاف شرط الإصلاح: ﴿ثُمَّ تَابُوا ... وَأَصْلَحُوا﴾: منى الإصلاح: الاستقامة على التوبة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد الجهالة لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ

في رحاب الخليل إبراهيم عليه السلام: *﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) ﴾

المناسبة والسياق في سورة النعم: لما ذكر الله كفران العاصين واستحقاقهم العذاب، ضرب المَثَلَ الأعلى والمُطلق في الشكر والتوحيد: إبراهيم عليه السلام.

والذي من خصائصه ونعوته: ﴿كان أُمَّةً﴾: مفرد بمعنى الجامع للخير، أو القدوة الذي يُقتدى به، قال ابن مسعود رضي الله عنه: معلَّم الخير، أي: كان معلماً للخير، يأتم به أهل الدنيا، فهو وحده أمة في التوحيد حين كان العالم كله غارقاً في الشرك، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه، وابن تيمية رحمه الله.

وهذا قريب من قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمرو بن نفيل: يُبعثُ أمَّةً وحدَه يومَ القيامةِ.

1 - أخرجه البخاري (6782) من أفراد البخاري على مسلم.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لقيتُ زيدَ بنَ عمرِو بنِ نُفَيلٍ بأسفلِ بَلْدَحٍ وذلك قبل أن ينزلَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الوحيُ فقدَّم إليه سفرةً فيها لحمٌ فأبَى أن يأكلَ وقال إنِّي لا آكلُ ممَّا تذبحون على أنصابِكم ولا آكلُ إلَّا ممَّا ذُكر اسمُ اللهِ عليه وكان زيدٌ يصلِّي إلى الكعبةِ وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ بعد ذلك فيه يُبعثُ أمَّةً وحدَه يومَ القيامةِ [1].

﴿قَانِتًا﴾، دائم الطاعة والخضوع والقيام بين يدي الله، ﴿حَنِيفًا﴾، مائلاً عن الشرك والمذاهب الباطلة متجهاً بكليته إلى التوحيد.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وفي هذا تعريض بالمشركين، حين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، فبين لهم حقيقة منهج إبراهيم ليظهر كذبهم وافتراءهم.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾: هنا الرابط الوثيق بسورة النحل (سورة النعم)؛ إبراهيم لم يغفل عن شكر النعم، فصارت صفة ملتصقة به، وفي هذا تعريض آخر بالمشركين.

النتيجة والجزاء: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: اصطفاء واختيار رباني.

*﴿آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: الثناء الحسن، والذرية الصالحة، والبركة في الذِّكر والأقتداء به عبر القرون.

وهنا يأتي الأمر المباشر للنبي ﷺ: *﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: إثبات للوحدة الإيمانية والتاريخية للرسالات الإلهية، ورد على مشركي قريش واليهود الذين ادعوا الانتساب لإبراهيم.

*﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

قراءة سياقية وفقهية: لما مرّ ذكر ملة إبراهيم السمحة، جاء بيَان أن التشديد بالسبت لم يكن من ملة إبراهيم الأصلية، وإنما جُعل عقوبة وتغليظاً على اليهود حين اختلفوا في اليوم المفضل للعبادة وتركوا الجمعة.

---

1 - أخرجه البخاري (5499) مختصراً باختلاف يسير، وأخرجه الدارقطني في تاريخ دمشق (ج19/ص508) وهذا لفظه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نَحنُ الآخِرونَ الأوَّلونَ يَومَ القيامةِ، ونَحنُ أوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ، بَيْدَ أنَّهم أوتوا الكِتابَ مِن قَبلِنا، وأوتيناه مِن بَعدِهم، فاختَلَفوا، فهَدانا اللهُ لما اختَلَفوا فيه مِنَ الحَقِّ، فهذا يَومُهمُ الذي اختَلَفوا فيه، هَدانا اللهُ له، قال: يَومُ الجُمُعةِ، فاليَومَ لَنا، وغَدًا لليَهودِ، وبَعدَ غَدٍ للنَّصارى[1]..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ هذا الدينَ يسرٌ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبهُ، فسدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا ويسِّروا واستعينُوا بالغَدوةِ والروحةِ وشيءٍ من الدُّلجةِ[2].

إشراقة بلاغية وتسلية للنبي ﷺ: التأكيد بحكم الله بين الاختلافات يوم القيامة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ لتثبيت النبي والمؤمنين بأن حقيقة الدين واضحة، وأن الفتنة الناشئة عن أهل الكتاب مصيرها إلى ميزان الحساب الإلهي العدل.

*﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

يبين ابن القيم وسيد قطب رحمهما الله أنّ هذه الآية هي القوانين الثلاثية المتدرجة للدعوة إلى الله بحسب طبائع النفوس المخاطبة:

الحكمة: وضع الشيء في موضعه، ومخاطبة العقل والعلماء بالبراهين المقنعة ومراعاة أحوال المخاطبين وظروفهم.

الموعظة الحسنة: الخطاب الوجداني العاطفي الذي يرقق القلوب الغافلة دون توبيخ أو تقريع.

الجدال بالتي هي أحسن: التعامل مع المعاندين وأهل الشبهات بأسلوب هادئ، بعيداً عن الفحش والمماراة والتحقير، لإظهار الحق لا لانتصار النفس.

ثم كان ختام الآية بـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ تحرير للداعية من التوتر وحمل هم النتيجة؛ فالداعية مكلف بالبلاغ والأسلوب الحكيم، أما الهداية أو الضلال فمرجعها إلى علم الله وقدره.

*﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾،

قيل: إن هذه الآية نزلت حين توعد النبي صلى الله كفار قريش بالانتقام حين مثلوا بجثة عمه حمزة رضي الله عنه، وورد في ذلك ثلاثة أحاديث لكنها ضعيفة.

قال في موقع الإسلام سؤال وجواب:

---

1 - أخرجه البخاري (876)، ومسلم.(855) .

2 - أخرجه البخاري (39)، والنسائي (5034)، وابن حبان (351) واللفظ لهم.

فالحاصل أن الأحاديث الثلاثة ضعيفة لا تتقوى، لما فيهما من أسباب الضعف الشديد والنكارة ، والثابت أن الذي توعد بالتمثيل بجثث المشركين هم بعض الصحابة، وليس النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك رغبة في الانتقام لقتلاهم الذين مَثَّل المشركون بهم ، كما هي طبيعة البشر في حب القصاص من الظالم والمعتدي بمثل ما ظلم واعتدى ، ولكن الله عز وجل نهاهم عن ذلك، وندبهم إلى الصبر واحتساب الأجر عند الله.

فقد ثبت عن أُبَي بن كعب رضي الله عنه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا ، وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، فِيهِمْ حَمْزَةُ ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ : لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ . قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْح مَكَّةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) [1].

فبين لهم سبحانه وتعالى التوازن بين العدل والفضل: فالآية تؤسس لقانون القصاص والعدالة النفسية والاجتماعية.

مرتبة العدل: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (المماثلة وعدم التعدي)، أما مرتبة الفضل والإحسان: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾

وهنا لطيفة لغوية: سمّى الفعل الأول عِقاباً مجازاً ومشاكلة تشريعية؛ لأن الفعل الأول (العدوان) ليس عقاباً، ولكن من باب المشاكلة اللفظية البلاغية (مثل: وجزاء سيئة سيئة مثلها).

*﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

التدرج والتربية الإيمانية للنبي ﷺ:

الانتقال من خطاب الجماعة المؤمنة إلى تخصيص النبي ﷺ بالأمر بالصبر.

الاستعانة والتبرؤ من الحول والقوة: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ الصبر ليس مجرد جهود شخصية، بل هو توفيق ونفحة واستعانة بالله وحده.

النهي عن الحزن والضيق: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (شفقة على عدم إيمانهم)، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (عدم الاكتراث بمخططاتهم لأن الله ناصرك).

*﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، مسك ختام سورة النحل: هذه معية خاصة: خُتمت بها السورة، وهي أجلّ معية، لأنها؛ وهي المعية الخاصة بالنصر والتأييد والحفظ والرعاية، كمعيته سبحانه لموسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ

1 - أخرجه الترمذي (رقم/3129) وغيره . وقال الترمذي : حسن غريب . وصححه الذهبي في " التلخيص " (391/2)، وصححه الألباني في " صحيح الترمذي "، وفي " السلسلة الصحيحة " (رقم/2377)، وانظر الإسلام سؤال وجواب (لسؤال 148585)

قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:61-62]، ومعيته جل وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: *﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [براءة:193].

الجمع بين التقوى والإحسان: ﴿اتَّقَوا﴾: بترك المحرمات والشرك وكفران النعم وعصيان الأوامر.

﴿مُّحْسِنُونَ﴾: بفعل الطاعات، وشكر النعم، والدعوة بالحكمة، والصبر على الأذى، والعفو عند القدرة.

وفي حديث جبريل الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: قال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّك تَراه، فإن لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك [1].

وفي هذا تعريض آخر بالمشركين أنّ الله جل وتعالى ليس معهم، فهو قريب من معنى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه سلم قال: ألا إنَّ آلَ أبي فلانٍ ليسوا لي بأولياءَ، إنما وليِيَ اللهُ و صالحُ المؤمنِين[2]. إلا أن الحديث فيه تصريح وليس تعريضاً.

ورواه البخاري عنه: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِهارًا غيرَ سِرٍّ يقولُ: إنَّ آلَ أبي -قال عَمرٌو: في كِتابِ مُحَمَّدِ بنِ جَعفَرٍ بَياضٌ- لَيسوا بأوليائي؛ إنَّما وليِّيَ اللهُ وصالِحُ المُؤمِنينَ. زادَ عَنبَسةُ بنُ عبدِ الواحِدِ، عن بَيانٍ، عن قَيسٍ، عن عَمرِو بنِ العاصِ، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولَكِن لَهم رَحِمٌ أبُلُّها ببَلالِها. يَعني أصِلُها بصِلَتِها. [3].

بهذا التناسق المحكم تنتهي السورة؛ بدأت بالأمر بـ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وتنـزيه الله، وانتهت بـ معية الله للمتقين المحسنين الذين يمتثلون أمره ويصبرون على دعوته ويجتنبون نواهيه سبحانه!

1 - أخرجه البخاري (39)، والنسائي (5034)، وابن حبان (351) واللفظ لهم.
2 - أخرجه مسلم (215)، وأحمد (17804)، وأبو عوانة في ((المستخرج)) (343) بلفظه.
3 - أخرجه البخاري (5990)، ومسلم (215).